من بلاغة التفصيل بـ (أما) فى القرآن الكريم

الدكتور
على محمد عبد الرحيم
مدرس البلاغة والنقد بالكلية

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين ، اللهم إنى أعوذ بك أن أقول حول كلامك كلمة لا ترضاها ، وأبرأ إليك من كل زلة غفل عنها القلب أو طاش بها الرأى ، وأقترب إليك بكل كلمة كشفت لقارئها معنى من معانى قرآنك فنزلت منه منزلاً حسناً ، وفتحت أمام أفقه نافذة من نوافذ كلامك الأسنى ، وأضرع إليك يا رحمن أن تجعل قلبى وقلمى وفكرى ووجدانى وحياتى كلها خدمة خاشعة لهذا المصحف الشريف .

أما بعد ....

فإن التفصيل آية من آيات بلاغة القرآن العالية ، وهدف من أهدافه السامية ، وطريقة من طرائق التعبير الرائعة ، ومسلك من مسالك توضيح المعانى وتقريرها والإبانة عنها والإفصاح عما فى مطاويها وفى هذا ما فيه من الإهتمام بإيصال المعانى ، وما تشتمل عليه من أحكام إلى كل من يخاطب بهذا المنهج السماوى الفريد ، وقد صرح القرآن الكريم فى كثير من آياته بأنها بيان وتبيين وأنها ﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[1] ، وأن فى آياته ﴿ تَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾[2] ، وأن القرآن الكريم فى جملته ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِياً ﴾[3] ، وما إلى ذلك مما يشير إلى اعتماد القرآن الكريم على منهج التفصيل كوسيلة لإيضاح المعنى وتوكيدها وتقريرها فى كثير من آياته وسوره .

وتتجلى بلاغة التفصيل ولاسيما إذا سبق بإجمال ، وكان هذا الإجمال مقصوداً لغرض الإيضاح والبيان ، فهو يبرز المعنى فى صورتين مختلفتين ، وصورة مجملة تستحث

---

(١) سورة هود : من الآية ١ .

(٢) سورة الأنعام : من الآية ١٤٥ .

(٣) سورة فصلت : من الآية ٣ .

النفس المتلقية على متابعة البيان فى محاولة إلى الوصول إلى المعنى المراد ، وصورة مفصلة تقنع النفس المتلقية وتشبع نهمها من تقرير وإيضاح للمعنى الذى تلفع فى الصورة المجملة بما يشبه الغموض وإبراز المعنى فى صورتين يعمد إليه فى مقام يراد فيه إدراك الشئ على حقيقته والإحاطة بجوانبه بتكرار العلم به على منهاجين : الأول يحقق ضرباً من العلم بالحقيقة ، والآخر يحقق ضرباً من العلم بجوانبه وخصائصه ، وكل ذلك من خصائص التفصيل بعد الإجمال تمكين المعنى فى النفس فضل تمكن ، قال أهل العلم " إن المعنى إذا ألقى على سبيل الإجمال والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل الإيضاح والتفصيل فتتوجه إلى ما يرد بعد ذلك ، فإذا ألقى كذلك تمكن فيها فضل تمكن ، وكان شعورها به أتم "[١] .

كذلك من خصائص التفصيل : إكتمال لذة العلم بالمعنى ، وفى هذا يقول أهل العلم : " إن الشئ إذا حصل الشعور به من وجه دون وجه تشوقت النفس إلى العلم بالمجهول فيحصل لها بسبب المعلوم لذة ، وبسبب حرمانها عن الباقى ألم ، ثم إذا حصل لها العلم به حصل لها لذة أخرى ، واللذة عقيب الألم أقوى من اللذة التى لم يتقدمها ألم "[٢] .

وهناك خصائص لبلاغة التفصيل تتبدى – إن شاء الله تعالى – فى ثنايا التحليل لشواهد التفصيل ، وناهيك عن إيضاح المعنى وتقريره ، ولو لم يكن للتفصيل فائدة غير هذين لكفى ، وهذا هدف من أهداف البيان القرآنى يعمد إليه فى إيصال المعنى ، وهذا يعكس بالضرورة اهتمام القرآن بالمتلقين ؛ لأنه إذا تقرر اهتمامه بالمعنى ، فاهتمامه بالمتلقين من باب أولى . كيف والقرآن الكريم إنما نزل لهداية الخلق أجمعين ؟

هذا ..... والتفصيل فى القرآن الكريم يأتى على صور كثيرة ومتعددة منها التفصيل بـ (أمَّا) والتى اخترت أن يدور فى فلكها هذا البحث ، وجعلته بعنوان :

---

(١) ينظر : الإيضاح (ضمن الشروح) ٣ / ٢١٠ – ط دار الكتب العلمية – بيروت .

(٢) ينظر : المرجع السابق ٣ / ٢١١ .

" من بلاغة التفصيل بـــ (أما) فى القرآن الكريم "

وقد دفعنى هذا البحث إلى مطالعة كتب اللغويين والنحاة للوقوف على دلالاة " أمَّا " وما تفيده من التفصيل ، وقد جعلت التمهيد الآتى للحديث عن أقول العلماء فيها .

خطة البحث :

وقد أتى هذا البحث فى سبعة مباحث يسبقها مقدمة وتمهيد ويعقبـــها خاتمـــة وفهرس للمصادر والمراجع ، وقد جعلت كل مبحث من هذه المباحث لســـياق مـــن سياقات " أمَّا " التفصيلية التى وردت هى فيه وكان لورودها كبير الفائدة وعظيم الأثر فقد وافت على المعنى المراد لاقتضاء المقام لها ، وقد كان منهجى فى هذا البحـــث أن اذكر أولاً السياق القرآنى التى وردت فيه " أما " التفصيلية ، ثم أعرج علـــى ســـبب النزول إن وجد حتى أربط بين الآيات والأحداث التى نزلت الآيات لأجلها ، وكيف كانت الايات معالجة صادقة للواقع ، وكيف صورته كأحسن ما يكـــون التصـــوير ، وكيف تحصل بها البيان والتفصيل ، ثم اقدن للآيات بشىء من الإيجاز حـــتى أكـــون والقارئ على بصيرة بمضمون السياق ، ثم آخذ بعد ذلك فى تحليل النص تحليلاً بلاغيًّا مبرزًا من خلاله بلاغة التعبير بأما وكيف ساعدت مفردات السياق على إبراز التفصيل وكيف كانت الحاجة على التفصيل ماسة ، وكيف وقعت أما موقعها اللائق من البلاغة وكيف أسهمت فى إبراز المعنى وإيضاحه ، كذلك لم أنس خلال التحليل البلاغـــى أن أقف على الدلالة المعجمية لمفردات السياق ، ومدى ملائمتها لجو السياق ، ثم الخاتمة ، وقد جعلتها تلخيصًا للبحث ، وذكرت فيها ما تراءى لى من توصيات ومقترحات وما توصلت إليه من قضايا لغوية وبلاغية ، ثم ختمت بفهرس للمصادر والمراجع .

هذا ... ولما كانتت " أمَّا " لا تفيد التفصيل فى كل أحوالها بل تفيده فى غالب أحوالها – كما تقرر – حرصت على استخلاص النماذج التى تبدى فيهـــا التفصـــيل بـــ " أمَّا " فى أبهى حلله ووافى على المعنى المراد ، وهذا جعلنى لا آخذ كل ما وقعت

عليه عينى من الأمثلة والشواهد ، وأتعرض له بالتحليل ، إذ ربما كان فيها شواهد لم تتمحض للتفصيل ، أو أن دلالتها للتوكيد فقط ، أو له وللشرط معاً ، لاسيما وقد قرر النحاة أنها قد تأتى لغير تفصيل أصلاً .

وإذا كانت أبواب البلاغة القرآنية لا تفتح إلا لمن يقعقعون حلقها ممن " قد هدوا إليها ، ودلوا عليها ، وكشف لهم عنها ، ورفعت الحجب بينهم وبينها ، كما يقول الإمام عبد القاهر – رحمه الله – فلهذا آثرت أن يكون بحثى هذا فى جزئية خاصة من جزئيات البلاغة ألا وهى التفصيل وليس على إطلاقه وبكل أدواته بل التفصيل بأما لأنه مهما حاول باحث استقصاء المسائل البلاغية فلن يستطع ، ولكن ربما وفقت لشئ لم يتيسر لغيرى ، وربما تحصل غيرى على ما لم استطع الحصول عليه وقد يفوتنى وغيرى الكثير والكثير ، وهذا مما فهمته من كلام سهل بن عبد الله التسترى ، حيث قال : " لو أعطى العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودع الله فى آية من كتابه ؛ لأنه كلام الله وكلامه صفته ، وكما أنه ليس لله نهاية فكذلك لا نهاية لفهم كلامه ، وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله على قلبه ، وكلام الله غير مخلوق ولا يبلغ إلى نهاية فهمه فهوم محدثه مخلوقة " [(١)] . أ . هـ .

ولست أذهب مع الوهم فأدعى أن هذا البحث قد بلغ الكمال أو قاربه إن هو إلا محاولة اجتهدت أن تترسم خطى العلماء الأوائل ، وابتهلت إلى الله أن يهبها منه قبولاً وتوفيقاً ورشداً ، وأن يخلص بها القصد وأن ينفع بها من يشاء . إنه ولىّ ذلك والقادر عليه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الباحث

---

(١) ينظر ذلك فى : البحر الرائق شرح كنز الدقائق لزين الدين بن نجيم الحنفى ٨ / ١٠٠ – ط دار المعرفة – بيروت . وينظر كتاب : توحيد الربوبية لابن تيمية ص ١٠٧ ، وينظر : المعجم الصوفى ٣ / ٤٨ .

تمهيد

بدهى أن يبدأ حديثى عن " أمَّا " من واقع كتب اللغويين والنحاة ، وفى هـذا إتيان للشئ من جهته ، وإنماء للفرع إلى أصله ؛ ذلك لأن اهتمام اللغـويين والنحـاة بالحروف وقد وصل حداً لم يتركوا معه لأحد مجالاً، وبمطالعة كتبهم – رحمهم الله جميعاً – وجدت أنهم قد ذكروا أن " أمَّا " حرف بسيط يفيد الشرط والتوكيد والتفصيل ، وقد اشترطوا لإفادتها الشرط لزوم الفاء فى جوابها ، وقالوا إن هذه الفاء لا تحذف إلا إذا دخلت على قول قد طرح استغناء عنه بالمقول فحينئذ يجب حذفها ، ويكون هـذا الحذف تعويلاً على قرينة الحال أو السياق كقوله تعالى ﴿ فَأَمَّا الَذِينَ اسْوَدَّتْ وجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم ﴾[1] أى فيقال لهم : أكفرتم ، وذكروا أنها لا تحذف فى غـير ذلـك إلى فى الضرورة[2] كقول الشاعر[3] :

فَأَمَّا القِتالُ لا قِتالَ لَديكُمُ ∴ وَلَكِنَّ سَيراً فى عِراضِ المَواكِبِ

---

(١) سورة آل عمران : من الآية ١٠٦ .

(٢) ينظر فى ذلك : رصف المبانى فى شرح حروف المعانى للمالقى – تحقيق / أحمد محمد الخراط ص ٩٧ وما بعدها طبعة مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، وكتاب الأزهية فى علم الحروف للهروى – تحقيق / عبد المعين الملوحى ص ١٤٤ وما بعدها – ط ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م ، ومغنى اللبيب لابن هشام – تحقيق / عبد السلام أمين ومعه حاشية الدسوقى ص ١٥٤ – ١٥٧ – ط دار الكتب العلمية – بيروت لبنان – ط أولى ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م ، والجنى الدانى فى حروف المعانى للمرادى ص ٨٨ وما بعدها وشرح ابن عقيل ٢ / ٢٩٠ وما بعدها – ط طبعة المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة – ط الرابعة عشرة ١٩٦٥ .

(٣) البيت للحارث بن خالد بن العاص المخزومى . ينظر فى ذلك : الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى – تحقيق / سمير جابر ١ / ٤٥ – طبعة دار الفكر – بيروت – ط ثانية ، وينظر : أسرار العربية لأبى البركات الأنبارى تحقيق د / فخر صالح قدارة ١ / ١١٠ – طبعة دار الجيل – بيروت – ط أولى ١٩٩٥ م ، وسر صناعة الإعراب لابن جنى – تحقيق د / حسن هنداوى ١ / ٢٦٥ – ط دار القلم – دمشق – ط أولى ١٩٨٥ م .

قيل أو فى ندور كقوله ﷺ : " أما بعد ..... ما بال أقوام يشترطون شـــروطاً ليست فى كتاب الله " [(١)] ، وإفادتها الشرط لما فيها من معنى مهماً يكن من شئ فنابت مناب أداة الشرط وفعله ، والمذكور بعدها هو جواب الشرط ؛ فلذلك لزمته الفـــاء ، وذكر النحاة أن لـــ" أمَّا " أحكاماً خاصة بها منها : أن الفاء بعدها لازمة لا تحذف إلا مع قول أغنى عنه المحكى به .... ومنها أنه لا يجوز أن يفصل بين " أمَّا " والفاء بجملـــة إلا إن كانت دعاء بشرط أن يتقدم الجملة فاصل بينها وبين " أمَّا " نحو : أما اليـــوم – رحمك الله – فالأمر كذا ، ولا يلى " أمَّا " فعل ؛ لأنها قائمة مقام شرط وفعل شرط ، فلو وليها فعل لتوهم أنه فعل الشرط ، وإنما يليها مبتدأ نحو : أما زيد فقائم ، أو خـــبر نحو : أما قائم فزيد .... أو مفعول مقدم نحو : ﴿ فَأَمَّا اليَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ﴾ [(٢)] أو مفعول به مقدر يفسره المذكور نحو : أما زيداً فأكرمته ، أو ظرف نحو : أما اليوم فـــأقوم ، أو مجرور نحو : ﴿ وأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[(٣)] أو حال نحو : أما مسرعاً فزيد ذاهـــب ، أو مفعول له نحو : أما العلم فعالم ، أو مصدر نحو : أما ضرباً فاضرب ، أو شرط نحو : ﴿ فَأَمَّا إن كَانَ مِنَ المُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ ... ﴾[(٤)] ، ومذهب سيبويه أن الجواب فى ذلك لأما لا للشرط لدلالة جواب " أما عليه " ..... ومنها أنه قد تبـــدل ميمهـــا الأولى يـــاءً استثقالاً للتضعيف[(٥)] .

---

(١) ينظر : صحيح البخارى – تحقيق / محمد زهير بن ناصر الناصر ١ / ٤٦٦ – حديث رقم ٤٥٦ – ط دار طوق النجاة – ط أولى ١٤٢٢ هـــ ، والمعجم الأوسط للطبرانى – تحقيق / طارق بن عوض الله ، وعبد المحسن الحسينى ٤ / ١٦٧ – حديث رقم ٣٨٨١ – ط دار الحرمين بالقاهرة ١٤١٥ هـــ ، والطبقات الكبرى لابن سعد – تحقيق / إحسان عباس ٢٥٧/٨ – ط دار صادر – بيروت – ط أولى ١٩٦٨ م .

(٢) سورة الضحى : الآية ٩ .

(٣) سورة الضحى : الآية ١١ .

(٤) سورة الواقعة : الإتيان ٨٨ ، ٨٩ .

(٥) ينظر فى ذلك : رصف المبانى ص ٩٧ وما بعدها ، والأزهية فى علم الحروف ص ١٤٤ وما بعدها ، ومغنى اللبيب ص ١٥٤ – ١٥٧ ، والجنى الدانى ص ٨٨ وما بعدها ، وشرح ابن عقيل ٢ / ٣٩٠ وما بعدها – ط دار الفكر العربى – ط أولى ١٤٢٨ هـــ / ٢٠٠٨ م ، وينظر :شرح الكافية للرضى ص ١٩١١ وما بعدها ، وحاشية الصبان ٤ / ٦٥ – ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط أولى ١٤١٧ هـــ / ١٩٩٧ م ، وينظر : أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام ٤ / ٢٣٢ – ٢٣٥ – ط دار الجيل – بيروت – ط خامسة ١٩٧٩ م .

كقول الشاعر[١] :

رَأَت رَجُلاً أَيما إِذا الشَمسُ عارَضَت ∴ فَيَضحى وَأَمّا بِالعَشِيِّ فَيَخصَرُ

أما دلالة " أمَّا " على الشرط فواضحة لما ذكر النحاة من قيامها مقام فعل الشرط وأداته ، ولحملها فى المعنى على مهما يكن من شئ ، وأما دلالتها على التوكيد فقد ذكر صاحب المغنى أنه " قل من ذكره ولم أر من أحكم شرحه غير الزمخشرى "[٢] قال صاحب الكشاف : " أما حرف فيه معنى الشرط ولذلك يجاب بالفاء ، وفائدته من الكلام أنه يعطيه فضل توكيد ، تقول : زيد ذاهب ، فإذا قصدت توكيد ذلك وأنه لا محالة ذاهب وأنه بصدد الذهاب ، وأنه منه عزيمة ، قلت : أما زيد فذاهب ، ولذلك قال سيبويه فى تفسيره : مهما يكن من شئ ، وهذا التفسير مدل لفائدتين : بيان لكونه توكيداً ، وأنه فى معنى الشرط "[٣] .

وأما فائدتها التفصيل ، فقد ذكر العلماء " أنه غالب أحوالها ... وقد تأتى لغير تفصيل أصلاً نحو : أما زيد فمنطلق "[٤] .

هذا ... والتفصيل من الناحية الأسلوبية هو ذكر ما تضمنته الجملة على سبيل الإفراد ومعنى الجملة الكلام المجمل الذى يحتاج إلى توضيح وتفصيل ، والمجمل بطبيعة

---

(١) البيت لعمر بن ابى ربيعة . ينظر ديوانه ١ / ١٥١ ، وينظر : الأغانى لأبى الفرج ١ / ٢٨٢ ، وينظر : اللآلئ فى شرح أمالى القالى لعبد الله بن عبد العزيز البكرى – تحقيق / عبد العزيز الميمنى ٢ / ٦٧٣ – ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط أولى ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م ، وينظر : الكامل فى اللغة والأدب للمبرد – تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ١ / ٦٦ – ط دار الفكر العربى بالقاهرة – ط ثالثة ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م .

(٢) ينظر : المغنى ص ١٥٨.

(٣) ينظر : الكشاف للزمخشرى – تحقيق / عبد الرازق المهدى ١ / ١٤٦ – ط دار إحياء التراث العربى – بيروت.

(٤) ينظر : المغنى ص ١٥٨ ، والجنى الدانى ص ٨٨ ، وأوضح المسالك ٤ / ١٥٧ وما بعدها ، وينظر : الإتقان للسيوطى – تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ١ / ١٩٦ – ط الهيئة المصرية العامة ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م ، وينظر : البرهان للزركشى – تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ٤ / ٢٤٢ – ط دارالمعرفة – بيروت ١٣٩١ هـ .

الحال يدعو النفس إلى التطلع إلى بيانه ، فإذا ما ورد التفصيل على نفس مشرئبة مستعدة فيقع فيها موقعاً حسناً يكون فيه ثبات الحكم وتقرير المقاصد وهذا يعد ميزة هذا الأسلوب ، قال ابن الجوزى : " والتفصيل فى الأصل : التفريق ، وذكر أهل التفسير أنه فى القرآن على وجهين : أحدهما التفريق ومنه قوله تعالى ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ والْجَرَادَ والْقُمَّلَ والضَّفَادِعَ والدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ ﴾[١] ، والثانى : البيان ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾[٢] ، وقوله : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[٣] ، وقوله : ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِياً ﴾[٤] ، والمعنى الثانى : (البيان) المقصود بالحديث وهو الذى ستدور حوله الصفحات القادمة بإذن الله ، والله هو الهادى إلى أقوم طريق .

---

(١) سورة الأعراف : من الآية ١٣٣ .

(٢) سورة الأعراف : من الآية ١٤٥ .

(٣) سورة هود : من الآية ١ .

(٤) سورة فصلت : من الآية ٣ . وينظر : نزهة الأعين النواظر فى علم الوجوه والنظائر لأبى الفرج ابن الجوزى – تحقيق / محمد عبد الكريم كاظم الراضى ١ / ٢٩٨ – ط مؤسسة الرسالة – بيروت – لبنان – ط أولى ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

المبحث الأول

(أما) فى سياق الحديث عن دلائل قدرة الله

سياق الآيات :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفَاسِقِينَ ﴾[1] .

بين يدى السياق :

الآيات السابقة اشتملت على تحدى البلغاء بأن يأتوا بسورة مثل القرآن ، فلما عجزوا عن معارضة النظم سلكوا فى المعارضة طريق الطعن فى المعانى ، ولبسوا على الناس بأن فى القرآن من سخيف المعنى ما يتتره عنه كلام الله ؛ ليصلوا بذلك إلى إبطال أن يكون القرآن من عند الله بإلقاء الشك فى نفوس المؤمنين ، وبذر الخصيب فى تنفير المشركين والمنافقين ، وقد ورد فى سبب نزول هذه الآية : " أنه لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين وهما قوله ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً ﴾[2] ، وقوله ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ ﴾[3] قال المنافقون : الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثلة ؛ فأنزل الله سبحانه هذه الآية "[4] .

وفى تصدير الآية بـ " إن " المفيدة للتحقيق ، ورد التردد والإنكار ، فهى إشارة إلى الترددات المتسلسلة المذكورة ، وأما الإتيان بالمسند إليه علماً " الله " دون غيره من الصفات ؛ فلأن هذا العلم جامع لجميع صفات الكمال ، فذكره أوقع فى

---

(١) سورة البقرة : من الآية ٢٦ .

(٢) سورة البقرة : من الآية ١٧ .

(٣) سورة البقرة : من الآية ١٩ .

(٤) ينظر : جامع البيان فى تأويل القرآن للطبرى – تحقيق / أحمد محمد شاكر ١ / ٣٩٩ – ط مؤسسة الرسالة – ط أولى ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م ، وينظر : أسباب النزول للواحدى ١ / ١٤ ، وينظر : لباب النقول السيوطى ١ / ١٧ – ط دار إحياء العلوم – بيروت .

الإقناع بأن كلامه هو أعلى كلام فى مراعاة ما هو حقيق بالمراعاة ، وفى ذلك أيضاً إبطال لتمويههم بأن اشتمال القرآن على مثل هذا المثل دليل على أنه ليس من عند الله واختير أن يكون المسند خصوص فعل الاستحياء زيادة فى الرد عليهم ؛ لأنهم أنكروا التمثيل بهذه الأشياء لمراعاة كراهة الناس .... فنبهوا على أن الخالق لا يستحى من ذلك إذ ليس ما يستحى منه ، ولأن المخلوقات متساوية فى الضعف بالنسبة إلى خالقها والمتصرف فيها ، وقد يكون ذكر الاستحياء هنا محاكاة لقولهم – وهو ما يسمى بالمشاكلة [١] – " أما يستحى رب محمد من أن يضرب مثلاً بالذباب والعنكبوت ، فجاءت على سبيل إطباق الجواب على السؤال ، وهو فن من كلامهم بديع وطراز عجيب "[٢] والحياء : انقباض النفس عن القبائح وتركه لذلك يقال : حَيِيَ فهو حَيِىّ واستحيا فهو مستح ، ولما كان الترك من لوازمه عبر عنه به ؛ لما أن أصل الحياء : تغير وإنكسار يعترى الإنسان من تخوف ما يعاب به ويذم ، ولا يجوز على القديم التغير وخوف الذم ، ويكون التعبير على هذا مجازاً من إطلاق الملزوم وإرادة اللازم ، والمعنى لا يترك ، فعبر بالحياء عن الترك لأنه من ثمراته ومن استحيا من فعل شئ تركه "[٣] ،

---

(١)ينظر : الإيضاح للقزوينى ١ / ٣٢٧ – ط دار إحياء العلوم – بيروت – ط رابعة ١٩٩٨ ، وبغية الإيضاح لعبد المتعال الصعيدى ١ / ٤١١ – ط مكتبة الآداب – ط السابعة عشر ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م ، والإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ٣ / ٣٢٣ .

(٢) ينظر : الكشاف ١ / ١٤١ ، وتفسير النسفى ١ / ٣٢ – ط دار الكتاب العربى – بيروت – بدون ، وينظر : التحرير والتنوير لابن عاشور ١ / ٣٥٤ – ط مؤسسة التاريخ العربى – بيروت – لبنان ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م ، وتفسير السراج المنير للخطيب الشربينى ١ / ٤٠ – ط دار الكتب العلمية – بيروت .

(٣) ينظر فى ذلك : أساس البلاغة للزمخشرى – تقديم د/ محمود فهمى حجازى ١ / ٢١١ – ط الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٣ م ، ولسان العرب لابن منظور ١٤ / ٢١١ – ط دار صادر – بيروت – ط أولى – بدون ، ومفردات القرآن للراغب الأصفهان ٢٨٢/١ – ط دار القلم – دمشق – بدون ، وتاج العروس للزبيدى ٣٧ / ٥١٢ – ط دار الهداية – بدون ، والصحاح للجوهرى – تحقيق / محمد زكريا يوسف ٧ / ١٧٤ – ط دار العلم للملايين – بيروت – ط رابعة – يناير ١٩٩٠ م ، والمخصص لابن سيده – تحقيق / خليل إبراهيم جفال ٤ / ٧٠ – ط دار إحياء التراث العربى =

وإذا كان معنى لا يستحيي أى لا يترك كان فى إيثار لا يستحيي على لا يترك إشارة إلى أن الأسباب من الحكمة والبلاغة وغيرهما تقتضى التمثيل فلا علة للترك إلا الحيـــاء ، والحياء عليه تعالى محال ، فلا سبب للترك أصلاً ، فألزمهم أشد إلزام وألطفه ، يقـــول الشهاب الخفاجى : " وإنما عدل به عن الترك الدال على المراد بالصراحة والمطابقة إلى ما ذكر من الاستحياء المحتاج للتوجيه لأنه استعارة وتمثيل ، وهى تدل علـــى إثبـــات الشئ ببينة وتقرير مع ما فيه من المبالغة والبلاغة على ما تقرر فى المعانى " [(١)] .

وضرب المثل : اعتماده وصنعه ، والضرب مستعمل مجازاً فى الوضع والجعل ، من قولهم : ضرب خيمة ، وفى إيثار التعبير بالمصدر المؤول " أن يضرب " دلالة علـــى أن هذا لا حرج فيه فهو متوقع حصوله فى كل وقت من الزمن الحاضر أو المستقبل .

وتنكير " مثلاً " للتنويع بقرينة بيانه بقوله : بعوضة فما فوقها ، و " مـــا " فى قوله " مثلاً ما " إبهامية وهى التى إذا اقترنت باسم نكرة أبهمته إبهاماً وزادتـــه شـــياعاً وعموماً ، والبعوضة : ضرب من الذباب معروف الواحدة بعوضة ، وقال الجوهرى : " هو البق "[(٢)] وبعوضة بدل من " مثلاً " أو عطف بيان عنـــد مـــن يجـــوز ذلـــك فى النكرات أو مفعول " ليضرب " ، و " مثلاً " حال تقدمت عليها لكونها نكرة أو همـــا

= بيروت ١٤١٧ هـــ / ١٩٩٦ م – ط أولى ، وتهذيب اللغة للأزهرى– تحقيق / محمد عوض مرعب ٥ / ١٨٧ – ط دار إحياء التراث العربى – بيروت – ط أولى ٢٠٠١ م ، ونزهة الأعين للنواظر فى علم الوجوه والنظائر لأبى الفرج بن الجوزى ١ / ٩٩ ، وينظر : التوقيف على مهمات التعاريف للمناوى – تحقيق د / محمد رضوان الداية ١ / ٣٠٢ – ط دار الفكر المعاصر ، ودار الفكر – بيروت ودمشق – ط أولى ١٤١٠هـــ .

(١) ينظر : حاشية الشهاب الخفاجى المسماه (عناية القاضى وكفاية الراضى) ٢ / ٨٦ – ط دار إحياء التراث العربى – بيروت – لبنان .

(٢) ينظر : لسان العرب ٧ / ١١٩ ، وأساس البلاغة ١ / ٥٥ ، والصحاح للجوهرى ٤ / ٢٠٣ ، والمخصص لابن سيده ٤ / ١١٢ ، وينظر : مختار الصحاح للرازى – تحقيق / محمود خاطر ١ / ٧٣ – ط مكتبة لبنان ناشرون – بيروت – ط ١٤١٥ هـــ / ١٩٩٥ م ، وينظر : المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده ١ / ١٤٧ .

مفعولان لتضمنه معنى الجعل والتبصير ، وذكر البعوضة فما فوقها من بين أفراد المثل إنما هو بطريق التمثيل دون التعيين والتخصيص ، فلا يخل بالشيوع بل يقرره ويؤكده بطريق الأولوية .

بلاغة التفصيل بـ " أما " :

قوله : فأما الذين آمنوا .... أما حرف فيه معنى الشرط ولذلك يجاب بالفاء ، وفائدته من الكلام أن يعطيه فضل توكيد تقول : زيد ذاهب ، فإذا قصدت توكيد ذلك ، وأنه لا محالة ذاهب وأنه بصدد الذهاب ، وأنه منه عزيمة قلت ، أما زيد فذاهب ، ولذلك قال سيبويه فى تفسيره : " مهما يكن من شئ فزيد ذاهب ، وهذا التفسير مدل لفائدتين : بيان كونه توكيداً ، وأنه فى معنى الشرط "[1] ، والفاء فى " فأما" للتعقيب الذكرى دون الحصولى أى لتعقيب الكلام المفصل على الكلام المجمل عطفت المقدر فى قوله تعالى " لا يستحيى " لأن تقديره لا يستحيى من الناس ، والكلام شروع فى تفصيل ما يترتب على ضرب المثل من الحكم إثر تحقيق حقية صدوره عنه تعالى ، ولما كان فى الناس مؤمنون وكافرون ، وكلا الفريقين قد تلقى ذلك المثل واختلفت حالهم فى الإنتفاع به نشأ فى الكلام إجمال مقدر اقتضى تفصيل حالهم ، وإنما عطف بالفاء لأن التفصيل حاصل عقب الإجمال ... وأما حرف موضوع لتفصيل مجمل ملفوظ أو مقدر ، ولما كان الإجمال يقتضى استشراف السامع لتفصيله كان التصدى لتفصيله بمنزلة سؤال مفروض كأن المتكلم يقول : إن شئت تفصيله فتفصيله كيت وكيت ، فإذا جيئ بأداة التفصيل المتضمنة معنى الشرط دل ذلك على مزيد اهتمام المتكلم بذلك التفصيل فأفاد تقوية الكلام ، وبهذا يظهر فضل قوله : فأما الذين آمنوا فيعلمون ... إلخ على أن يقال فالذين آمنوا يعملون ؛ لأن فى تصدير الجملتين بـ "أما" من إحماد أمر المؤمنين ، والاعتداد بعلمهم أنه الحق ، وذم للكفرة ونعى عليهم إغفالهم حظهم ، وعنادهم ، ورميهم بالكلمة الحمقاء ، والمراد بالموصول فى قوله :

---

(١) ينظر : الكشاف ١ / ١٤٦ .

الذين آمنوا فريق المؤمنين المعهودين ، كما أن المراد بالموصول الآتى : " الذين كفروا فريق الكفرة لا من يؤمن بضرب المثل ومن يكفر به " وفى إيثار الموصول – الذين آمنوا – على أن يقال : المؤمنون إشارة إلى التنصيص على الإيمان هو سبب العلم بحقيته ، وأن العلم بحقيته إيمان " [١] وفى تقديم بيان المؤمنين على ما حكى من الكفرة مما لا يفتقر إلى بيان سبب ، والمقصود من ذكر المؤمنين هنا الثناء عليهم بثبات إيمانهم ، وإنما عبر فى جانب المؤمنين (يعلمون) تعريضاً بأن الكافرين إنما قالوا ما قالوه عناداً ومكابرة ولم يقل : يقولون إشارة إلى أن المؤمنين اكتفوا بالخضوع والطاعة من غير حاجة إلى التكلم ، والكافرون لخبثهم وعنادهم لا يطيقون الأسرار ، والحق : هو الثابت الذى لا يسوغ إنكاره يقال : حق الأمر إذا ثبت ووجب ، وحقت كلمة ربك [٢] .

وفى قوله " أنه " من التوكيد ما لا يخفى ، " وفى إيثار التعريف فى الحق بدل أنه حق من المبالغة فى حقية المثل كأنه تلك الحقيقة والجنس "[٣] ، ومن المعروف فى علم البيان أن الخبر قد يؤتى به معرفاً بأل للدلالة على أن المخبر عنه بالغ فى الوصف الذى أخبر به عنه مرتبة الكمال ، وفى قوله : " أنه الحق بدل أنه البليغ الأنسب بالمقام إشارة إلى آخر نتيجة اعتراضهم إذ غرضهم نفى كونه كلام الله ، وأن حصر " أنه الحق " إشارة إلى أن هذا هو المستحسن الذى لا يستقبح بخلاف ما يزعمون ، إذ السلامة من العيب لا تثبت الكمال "[٤] ، والضمير فى " أنه الحق " للمثل أو لأن يضرب ، وقوله

---

(١) ينظر : إشارات الإعجاز فى مظان الإيجاز لبديع الزمان سعيد النورسى – تحقيق / إحسان قاسم الصالحى ١ / ٢٣٥ ، وينظر : تفسير أبى السعود ١ / ٧٣ – ط دار إحياء التراث العربى – بيروت ، وينظر : روح المعانى للآلوسى ١ / ٢٠٧ – ط دار إحياء التراث العربى – بيروت .

(٢) ينظر فى ذلك : الكشاف ١ / ١٤٦ ، وأساس البلاغة ١ / ١٨٧ – ١٨٩ ، ومفردات الراغب ١ / ٢٤٨ ، والصحاح للجوهرى ٥ / ١٤٦ ،وتاج العروس ٢٥ / ١٧١ .

(٣) حاشية الشهاب الخفاجى ٢ / ٩٣ – ط دار إحياء التراث العربى – بيروت – لبنان .

(٤) ينظر : إشارات الإعجاز للنورسى ١ / ٢٣٥ .

" من ربهم " من فيه لابتداء الغاية المجازية ، وعاملها محذوف وقع حالاً من الضمير المستكن فى الحق أو من الضمير العائد إلى المثل أو إلى ضربه أى كائناً وصادراً من ربهم لا كما زعم الذين كفروا أنه مخالف للصواب "والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم لتشريفهم ، وللإيذان بأن ضرب المثل تربية لهم ، وإرشاد إلى ما يوصلهم إلى كمالهم اللائق بهم ، ولعل الاكتفاء بحكاية علمهم المذكور عن حكاية اعترافهم بموجبه كما فى قوله تعالى : ﴿ والرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾[١] للإشعار بقوة ما بينهما من التلازم وظهوره المغنى عن ذكره "[٢] لم يتوقف التفصيل عند هذا الحد بل تتميماً للبيان وتفصيلاً للإجمال عطف عليه قوله : " وأما الذين كفروا فيقولون .... " .

وفى إيثار الموصول – الذين كفروا – على أن يقال الكافرون الأوجز إيماء إلى أن إنكارهم يجئ من الكفر ، ويذهب إلى الكفر ، وفيه إشارة إلى ذم الكافرين جميعاً من آمن بضرب المثل منهم ومن كفر ، وأيضاً فى يقولون رمز إلى أنهم كما كانوا ضالين كذلك كانوا مضلين بأقوالهم : " وقد أوثر (يقولون) على (يعلمون) حسبما يقتضيه ظاهر قرينه دلالة على كمال غلوهم فى الكفر ، وترامى أمرهم فى العتو فإن مجرد عدم العلم بحقيته ليس بمثابة إنكارها واستهزاء بها صريحاً وتمهيداً لتعداد ما نعى عليهم فى تضاعيف الجواب من الضلال والفسق ، ونقض العهد وغير ذلك من شنائعهم المترتبة على قولهم المذكور ... وقد قيل كان من حقه ، وأما الذين كفروا فلا يعلمون ليطابق قرينه ، ويقابل قسيمه لكن لما كان قولهم هذا دليلاً على جهلهم عدل إليه على سبيل الكناية ليكون كالبرهان عليه " [٣] وقوله : ماذا أراد الله بهذا مثلاً "

---

(١) سورة آل عمران : من الآية ٧ .

(٢) ينظر : تفسير أبى السعود ١ / ٧٣ ، ونظم الدرر ١ / ٧٧ – تحقيق عبد الرازق المهدى – ط دار الكتب العلمية – بيروت ، وروح المعانى ١ / ٢٠٨ .

(٣) ينظر : تفسير أبى السعود ١ / ٧٤ .

الاستفهام فيه إنكارى أى جعل الكلام فى صورة الاستفهام كناية به عن الإنكار ، لأن الشئ المنكر يستفهم عن حصوله ، فاستعمال الاستفهام فى الإنكار من قبيل الكناية ، وقد يكون الاستفهام للاستبعاد والاستهزاء والتكذيب "[١] ، وفى كلمة " هذا " تحقير للمشار إليه واسترذال له ، وليس مرادهم بهذه العظيمة استفهام الحكمة فى ضرب المثل ، ولا القدح فى اشتماله على الفائدة مع اعتراضهم بصدوره عنه عز وجل بل غرضهم التنبيه بادعاء أنه من الدناءة والحقارة بحيث لا يليق بأن يتعلق به أمر من الأمور الداخلة تحت إرادته تعالى ، ومثلاً : نصب على التمييز أو الحال ، وقوله : " يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً " جارٍ مجرى التفسير والبيان للجملتين المصدرتين بـ " أما " ، وأن فريق العالمين بأنه الحق ، وفريق الجاهلين المستهزئين به كلاهما موصوف بالكثرة ، وأن العلم بكونه حقاً من باب الهدى الذى ازداد به المؤمنون نوراً إلى نورهم ، وأن الجهل بحسن مورده من باب الضلالة التى زادت الجهلة خبطاً فى ظلمائهم "[٢] .

وهذا على عكس طريقة النشر المعكوس[٣] ؛ لأن معنى هاتين الجملتين قد اشتمل عليهما معنى الجملتين السالفتين إجمالاً " وقد قدم الإضلال على الهداية مع تقدم حال المهتدين على حال الضالين فيما قبله ليكون أول ما يقرع أسماعهم من الجواب أمراً فظيعاً يسوؤهم ويفت فى أعضادهم ، وهو السر فى تخصيص هذه الفائدة

---

(١) ينظر : تفسير أبى السعود ١ / ٧٤ ، والتحرير والتنوير ١ / ٢١٢ ، وروح المعانى ١ / ٢٠٩ ، وينظر : حاشية الصاوى ١ / ١٨ – ط دار إحياء التراث العربى – بيروت – لبنان – بدون ، وينظر : التسهيل لعلوم التنزيل لابن الجزى الكلبى ١ / ٨٢ .

(٢) ينظر : الكشاف ١ / ١٤٧ .

(٣) ينظر : الإيضاح ١ / ٣٣٣ – ط دار إحياء العلوم ، وبغية الإيضاح ١ / ٤٢١ ، وينظر : مختصر السعد ١ / ٢٥٥ ، وينظر : البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ٢ / ٤٠٣ ، وكتاب الكليات للكفوى ١ / ١٢٧٩ ، ومعجم مقاليد العلوم فى الحدود والرسوم للسيوطى – تحقيق / محمد إبراهيم عبادة ١ / ١٠٢ – ط مكتبة الآداب بالقاهرة – ط أولى ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٤ م .

بالذكر "[١] وفى إيثار صيغة المضارع فى الفعلين " يضل ، ويهدى " إيذاناً بالتجدد والاستمرار ، وأن هذا الحكم بالهدى والضلال يصدق على من يعتقد باعتقاد واحد منهما ، وقد وقع الطباق بين قوله : آمنوا وكفروا ، وبين قوله : يضل ويهدى ، وذلك ليوضح المعنى عن طريق التضاد ، ويبرز حسن الإيمان وفضل الهداية عن طريق إظهار شناعة الكفر وقبح الضلال " والباء فى الموضعين : يضل به .... ويهدى به " للسببية ، وفى تكريرها مع الفعلين مع جواز الاكتفاء بالأول لزيادة تقرر السببية وتأكيدها "[٢] أما قوله : كثيراً ففى الأول : كمية وعدداً ، وفى الثانى : قيمة وكيفية ، نعم إن كرام الناس كثيرون وإن قلُّوا ، فالتعبير بالكثير فى الثانية رمز إلى كون القرآن رحمة للبشر إذ من لطف القرآن وشمول رحمته للناس إظهار فضائل المهتدين القليلين كثيرة ، وبيان أن صاحب فضيلة وهداية أولى من ألف من المحرومين منها ، وقوله تعالى : " وما يضل به إلا الفاسقين " الفسق فى اللغة : الخروج يقال فسق عن أمر الله : خرج ، وفسقت الرطبة عن قشرتها ، والفأرة عن جحرها ، والفسق : التـرك لأمر الله ، وفَسَقَ يَفْسُقُ فِسْقَاً وفُسُوقاً ، وكذلك الميل إلى المعصية ، والخروج عن طريق الحق ، أو الفجور كالفسوق ، والفعل من باب نَصَرَ وضَرَبَ وكَرُمَ ، وفَسَقَ : جار" [٣] ، وفى الشريعة : الخروج عن طاعة الله عز وجل بارتكاب الكبيرة التى من جملتها الإصرار على الصغيرة ، والمراد بالفاسقين هنا : العاتون الماردون فى الكفر الخارجون عن حدوه ممن حكى عنهم ما حكى من إنكار كلام الله تعالى ، والاستهزاء به ، والضمير فى " به " إما للمثل أو لضربه ، وهذا عطف على ما قبله ، وتكملة للجواب والرد ، وزيادة تعيين لمن أريد إضلالهم ببيان صفاتهم القبيحة المستتبعة لهم ،

---

(١) ينظر : تفسير أبو السعود ١ / ٧٤ ، وحاشية الشهاب الخفاجى ٢ / ١٠١ .

(٢) ينظر : تفسير أبو السعود ١ / ٧٥ .

(٣) ينظر فى ذلك : لسان العرب ١٠ / ٢٠٨ ، وأساس البلاغة ٢ / ٢٠٠ ، ومفردات الراغب ٢ / ١٩٢ ، والقاموس المحيط مادة فسق .

وإشارة إلى أن ذلك ليس إضلالاً ابتدائياً بل هو تثبيت على ما كانوا عليه من فنون الضلال وزيادة فيه ، وفى أسلوب القصر بالنفى والاستثناء من قصر الإضلال على الفاسقين دون غيرهم تزكية لحال المؤمنين المقرين بحقية ضرب المثل ، وإنهم فى هداية الله ، ومع المقرين ، وتخصيص الإضلال بهم مرتباً على صفة الفسق ، وما جرى عليه من القبائح للإيذان بأن ذلك هو الذى أعدهم للإضلال وأدى بهم إلى الضلال ، قال الإمام البقاعى : " ولما كان المقام للترهيب اكتفى فى المهتين بما سبق من بشارتهم ، وقال فى ذم القسم الآخر وتحذيره وما يضل به إلا الفاسقين "[١] ، وهذا تذييل [٢] أو اعتراض[٣] فى آخر الكلام بناء على قول من جوزه ، وقيل حال . والله أعلم .

---

(١) ينظر : نظم الدرر ١ / ٧٧ .

(٢) ينظر فى ذلك : الصناعتين – تحقيق / على محمد البجاوى ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ص ٣٩٥ – ط دار الفكر العربى – ط ثالثة – بدون ، والطراز للعلوى ٣ / ١٣١ – ط دار الكتب العلمية – بيروت ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م ، وطبعة مكتبة المعارف الرياض – بدون ، وينظر : الإيضاح ١ / ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، وشرح التلخيص ٣ / ٢٢٤ ، وما بعدها – ط دار الكتب العلمية – بدون ، والمصباح فى المعانى والبيان والبديع – لبدر الدين ابن مالك – تحقيق د/ حسنى عبد الجليل يوسف ص ٢٣٠ – مكتبة الآداب بالجماميز – بدون .

(٣) ينظر فى ذلك : الإيضاح – تحقيق / خفاجى ١ / ٣١٣ ، ٣١٤ ، وينظر : شرح عقود الجمان للسيوطى ١ / ٢٤٩ – ط الحلبى بمصر – ط ثالثة ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م ، وينظر : الخصائص لابن جنى – تحقيق د/ محمد على النجار ١ / ٣٦ – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب – ط رابعة ١٩٩٩م ، وينظر : مسائل البلاغة فى كتاب الخصائص – د/ عبد المنعم سيد عبد السلام الأشقر ص ٥٣ وما بعدها – رسالة ماجستير مخطوط فى كلية اللغة العربية بالقاهرة برقم ٧١٩ .

المبحث الثانى
(أما) فى سياق الحديث عن الحق والباطل

سياق الآيات :

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وِمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الحَقَّ والْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴾[1] .

بين يدى السياق :

بعدما مُثِّل المشرك والشرك بالأعمى والظلمات ، والموحد والتوحيد بالبصير والنور مثل الحق وأهله بالماء الذى يترله الله تعالى من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيون به ، وينفعهم أنواع المنافع وبالفلز الذى ينتفعون به فى صوغ الحلى منه واتخاذ الأوانى ، وشبه الباطل فى سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة بزبد السيل الذى يرمى به ، وبزبد الفلز الذى يطفو فوقه إذا أذيب ، وقوله تعالى " أنزل من السماء ماء " لما كان حمل الماء فى العلو لا يمكن إلا عن قهر ، وإنزاله فى وقت دون غيره كذلك أتبع هذا الختم قوله دليلاً مشاهداً عليه فقال : أنزل ، ولما كان المترل منه أنواعاً شتى قال : " ماء " فسالت أى فتسبب عن إنزاله – لكثرته – أن سالت أودية ، وهذه الجملة استئناف ابتدائى أفاد تسجيل حرمان المشركين من الانتفاع بدلائل الاهتداء ، وجيئ فى هذا التسجيل بطريقة ضرب المثل بحالى فريقين فى تلقى شئ واحد انتفع فريق بما فيه من منافع ، وتعلق فريق بما جاء فيه من مضار ، وجيئ فى ذلك التمثيل[2] بحالة فيها دلالة على بديع تصرف الله تعالى ليحصل التخلص من ذكر دلائل

---

(١) سورة الرعد : آية ١٧ .

(٢) ينظر فى هذا التمثيل : المثل السائر لابن الأثير – تحقيق / محمد محى الدين عبد الحميد ٢ / ١٩١ – طبعة المكتبة العصرية – بيروت ١٩٩٥ م ، وينظر : الأمثال من الكتاب والسنة – للحكيم الترمذى – تحقيق د/ السيد الحميلى ١ / ٣١ – ط دار ابن زيدون – بيروت – ط أولى ١٩٨٥ م ، والأمثال فى القرآن الكريم لابن القيم – تحقيق / أبو حذيفة إبراهيم بن محمد ١ / ١١ – ط مكتبة الصحابة – طنطا – ط أولى ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م س.

القدرة إلى ذكر عبر الموعظة ، فالمركب مستعمل فى التشبيه التمثيلى بقرينة قوله : " كذلك يضرب الله الحق والباطل " شبه إنزال القرآن الذى به الهدى من السماء بإنزال الماء الذى به النفع والحياة من السماء ، وشبه ورود القرآن على أسماع الناس بالسيل يمر على مختلف الجهات ، فهو يمر على التلال والجبال فلا يستقر فيها ، ولكنه يمضى على الأودية والوهاد فيأخذ منه بقدر سعته ، وتلك السيول فى حال نزولها تحمل فى أعاليها زبداً ، وهو رغوة الماء الخالص الصافى ينتفع به الناس للشراب والسقى ، ثم شبهت هيئة نزول الآيات ، وما تحتوى عليه من إيقاظ النظر فيها فينتفع به من دخل الإيمان فى قلوبهم على مقادير قوة إيمانهم وعملهم ، ويمر على قلوب قوم لا يشعرون به وهم المنكرون والمعرضون ، ويخالط قلوب قوم فيتأملونه فيأخذون منه ما يثير لهم شبهات وإلحاداً "[1] .

ولما كان المقصود التشبيه بالهيئة كلها جيئ فى حكاية ما ترتب على إنزال الماء بالعطف بفاء التفريغ فى قوله : فسالت ، وقوله : فاحتمل ، والأودية جمع الوادى وهو الحفير المتسع الممتد من الأرض الذى يجرى فيه السيل ، أسند فيه السيلان إلى الأودية مع أن السيلان للماء فيها ، فقد أسند السيلان للمحل وأراد الحال فيه وهو الماء ، وفى التعبير بالمجاز ما يجعل الناظر إلى تدفق الماء فى الأودية وتدافع أمواجه يتوهم فى لحظات الانبهار أن الأودية تجرى أيضاً مع الماء ، وهذا معنى بديع يضفى على الكلام زينة حلوة ، ويصور حالة التخيل التى تعترى الناظرين المندهشين ، قال صاحب الكشاف : " فإن قلت لم نكرت الأودية ؟ قلت : لأن المطر لا يأتى إلا على طريق المناوبة بين البقاء ، فيسيل بعض أودية الأرض دون بعض ، فإن قلت فما معنى بقدرها ؟ قلت : بمقدارها الذى عرف الله أنه نافع للممطور عليهم غير ضار ، ألا ترى إلى قوله : " وأما ما ينفع الناس " لأنه ضرب المطر مثلاً للحق فوجب أن يكون مطراً خالصاً للنفع خالياً

---

(١) ينظر فى ذلك : تفسير الطبرى ١٦ / ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، والكشاف ٢ / ٤٩٣ ، وتفسير أبو السعود ٥ / ١٣ ، ونظر الدرر ٤ / ١٤٠ ، والتحرير والتنوير ١٢ / ١٦٥ .

من المضرة ، ولا يكون كبعض الأمطار والسيول الجواحف "[١] .

والقَدَر بفتحتين : التقدير وهو فى موضع الحال من أودية ، وذكره لأنه من مواضع العبرة ، ولأن حاله مقصود فى التمثيل ، كما أشار إلى ذلك أبو السعود[٢] ، وقوله : فاحتمل الاحتمال : رفع الشئ على الظهر بقوة الحامل له ، والسيل : هو ماء المطر الجارى فى الوادى بعظم ، والزبد : الرغوة ، جاء فى معاجم اللغة : " الزبد بفتحتين رغوة البحر ومنه اشتق الزُّبد كقفل ، وهو ما يخرج بالمخض من لبن بقر أو غنم لمشابهته إياه فى اللون "[٣] والمعنى : فاحتمل السيل الذى حدث عن ذلك الماء الذى أنزله من السماء زبداً عالياً فوق السيل فهذا مثلى الحق والباطل ، فالحق هو الماء الباقى الذى أنزله الله من السماء ، والزبد الذى لا ينتفع به هو الباطل ، وقوله : ومما يوقدون : من فيه ابتدائية ، وجملة " ومما يوقدون عليه فى النار " تمثيل آخر ورد استطراداً عقب ذكر نظيره تفيد تقريب التمثيل لقوم لم يشاهدوا سيول الأودية من سكان القرى مثل أهل مكة ، وتقديم المسند " ومما يوقدون عليه فى النار " على المسند إليه فى هذه الجملة " زبد مثله " للاهتمام بالمسند لأنه موضع اعتبار أيضاً ببديع صنع الله تعالى ، إذ جعل الزبد يطفو على أرق الأجسام ، وهو الماء وعلى أغلظها وهو المعدن فهو ناموس من نواميس الخلقة ، فبالتقديم يقع تشويق السامع إلى تقرب المسند إليه ، وفى إيثار الموصول – مما يوقدون عليه – والعدول به عن تسمية الذهب والفضة وذلك لأنها أحصر وأجمع ، ولأن الغرض فى ذكر الجملة المجعولة صلة ، فلو ذكرت بكيفية غير صلة كالوصفية مثلاً لكانت بمنزلة الفضلة فى الكلام ولطال الكلام بذكر المعدنين مع ذكر الصلة ، إذ لا محيد عن ذكر الوقود لأنه سبب الزبد فكان الإتيان

---

(١) ينظر : الكشاف ٢ / ٤٩٣ .

(٢) ينظر : تفسير أبو السعود ٥ / ١٤ .

(٣) ينظر فى ذلك : لسان العرب ٣ / ١٩٢ ، والقاموس المحيط – مادة " زبد " ، وكتاب العين ٧ / ٣٥٧ ، والصحاح ٣ / ٤٢ ، والتوقيف على مهمات التعاريف ١ / ٣٨٣ .

بالموصول قضاء لحق ذكر الجملة مع الإختصار البديع " ولأن فى العدول عن ذكر اسم الذهب والفضة إعراضاً يؤذن بقلة الاكتراث بهما ترفعاً عن ولع الناس بهما ، فإن اسميهما قد اقترن بالتعظيم فى عرف الناس ، وهذه العبارة كما ذكر صاحب الكشاف جامعة لأنواع الفلز مع إظهار الكبرياء فى ذكره على وجه التهاون به كما هو هجيرى الملوك نحو ما جاء فى ذكر الآجر : ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ ﴾[1] والضمير فى قوله : يوقدون ، للناس أضمر مع عدم سبق الذكر لظهوره ، وفى زيادة " فى النار " إشعار بالمبالغة فى الاعتماد للإذابة ، وقوله : ابتغاء حلية أو متاع ، أصل المتاع : التمتع الحاضر فهو تقسيم حاصر لأنواع الفلز المنوه إليها ، قال صاحب الكشاف : " فإن قلت فما فائدة قوله : ابتغاء حلية أو متاع ؟ قلت الفائدة فيه كالفائدة فى قوله : بقدرها ؛ لأنه جمع الماء والفلز فى النفع فى قوله : وأما ما ينفع الناس لأن المعنى : وأما ما ينفعهم من الماء والفلز فذكر وجه الانتفاع مما يوقد عليه منهم ويذاب وهو الحلية والمتاع "[2] ، والمعنى : ومما يوقدون عليه من هذه الأشياء زبد مثله يعنى مثل زبد السيل لا ينتفع به ، ويذهب باطلاً كما لا ينتفع بزبد السيل ويذهب باطلاً كذلك يضرب الله الحق والباطل أى مثل ذلك الضرب البديع المشتمل على نكت رائقة يضرب الله الحق والباطل " وقد علم أن الزبد مثل للباطل ، وأن الماء مثل للحق فارتقى عن ذلك إلى ما فى المثلين من صفتى البقاء والزوال ليتوصل بذلك إلى البشارة والنذارة لأهل الحق وأهل الباطل بأن الفريق الأول هو الباقى الدائم ، وأن الفريق الثانى زائل بائد "[3] .

---

(١) ينظر : الكشاف ٢ / ٤٩٣ ، وتفسير أبو السعود ٥ / ١٤ ، والتحرير والتنوير ١٢ / ١٦٨ ، وبعض الآية من سورة القصص رقم ٣٨ .

(٢) ينظر : الكشاف ٢ / ٤٩٣ .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير ١٢ / ١٦٨ .

بلاغة التفصيل بـ " أما " :

وهذا يصير التشبيه تعريضاً وكناية عن البشارة والنذارة ، وهذا التمثيل الذى قد تم وتحقق قد ترك فى النفس أسئلة تحتاج إلى بيان حيث كان التشبيه – كما تقرر – تعريضاً وكناية عن البشارة والنذارة أى بشارة وأى نذارة ؟ وأقول إذا كان هذان المثلان قد ضربا للحق والباطل فحرى بالنفس المؤمنة المتلقية لكلام الله أن تتعرف على الغرض الخفى الذى سيق لأجل هذا التمثيل والبيان القرآنى لا يترك النفس كذلك بل يشوقها بالقدر الذى يضمن به انتباهها ويطمئن على استلهامها العبرة والعظة فى كل ما ظهر وخفى وإيراد الإجمال أولاً ثم تعقيبه بالتفصيل طريقة قرآنية تعتمد على إيصال المعانى بوسيلة تشويقية تقع مع النفوس موقعاً حسناً قال القاضى أبو السعود " وبعد تحقيق التمثيل مع الإيماء فى تضاعيف ذلك إلى وجوه المماثلة على أبدع وجوه وآنقها حسبما أشير إليه فى مواقعها بين عاقبة كل من الممثلين على وجه التمثيل مع التصريح ببعض ما به المماثلة من الذهاب والبقاء تتمة للغرض من التمثيل من الحث على الحق الثابت ، والردع على الباطل الزائل فقال : فأما الزبد .... " [1] وأما – على ما تقرر – لتفصيل المجمل ، وإذا كان الإجمال يثير فى النفس السؤال ، ويقتضى استشراف السامع للتفصيل كان مجئ الإجمال كأنه قد ضمن سؤالاً مقدراً والإجابة عنه مطوية فى التفصيل فإذا جاءت أداة التفصيل المضمنة معنى الشرط دل ذلك على اهتمام المتكلم بذلك التفصيل وهذا مما يضفى على الكلام توكيداً وبه يظهر فضل قوله تعالى فأما الزبد على أن يقال فالزبد يذهب جفاء لأن فى تصدير الجملة بـ " أما " من تقرير حقيقة الزبد وأنه لا بقاء له ولا نفع فيه وكذلك الباطل وفى هذا تمكن النذارة وأن ما ينفع الناس باق لا زوال له وكذلك الحق وفى هذا تكمن البشارة وهذا بطبيعته يدعو النفس إلى تخير ما يصلح لها وما تستقيم عليه ، والجملة المصدرة بـ " أما " فأما

---

(١) تفسير أبو السعود ٥ / ١٥ .

الزبد : معطوفة على جملة فاحتمل السيل زبداً رابياً مفرعة على التمثيل ، وافتتحت بـ " أما " التفصيل والتوكيد ، وصرف ذهن السامع إلى الكلام لما فيه من خفى البشارة والنذارة ؛ ولأنه تمام التمثيل ، والتقدير : فذهب الزبد جفاء ومكث ما ينفع الناس فى الأرض " والجفاء ما يرمى به فى الوادى أو القدر من الغثاء إلى جوانبه يقال : أجفأت القدر زبدها : ألقته إجفاء ، وأجفأت الأرض : صارت كالجفاء فى ذهاب خيرها .... ويقال : جفت القدر وأجفت ، ومنه الجفاء وقد جفوته أجفوه جفوة وجفاء "[1] .

وقوله : " وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض " هذا من تتمة التفصيل الذى يتضح به الإجمال ، ويزول به الإبهام والذى ينفع الناس هو الماء الصافى والفلز الخالص ، أما الماء فيثبت بعضه فى مناقعه ، ويسلك بعضه فى عروق الأرض ، وأما الفلز فيصاغ من بعضه أنواع الحلى ، ومن بعضه يتخذ أصناف الآلات والأدوات فينتفع بكل من ذلك أنواع الانتفاعات مدة طويلة ، فالمواد بالمكث فى الأرض ما هو أعم من المكث فى نفسها ، ومن البقاء فى أيدى المتقلبين فيها ، وقد عبر القرآن الكريم عن الماء بقوله : ما ينفع الناس للإيماء إلى وجه بناء الخبر ، وهو البقاء فى الأرض تعريضاً للمشركين بأن يعرضوا أحوالهم على مضمون هذه الصلة ليعلموا أنهم ليسوا مما ينفع الناس ، واكتفى بذكر وجه شبه النافع بالماء وغير النافع بالزبد على ذكر وجه شبه النافع بالذهب والفضة وغير النافع بزبدهما استغناء عنه قال القاضى " وتغيير ترتيب اللف الواقع فى الفذلكة الموافق للترتيب الواقع فى التمثيل لمراعاة الملائمة بين حالتى الذهاب والبقاء وبين ذكريهما ، فإن المعتبر إنما هو بقاء الباقى بعد ذهاب الذاهب لا قبله "[2] وبهذا يكون قد انقشع الإجمال بالتفصيل ، وحصل المراد من

---

(١) ينظر فى ذلك : مفردات الراغب ١ / ١٨٥ ، ولسان العرب ١ / ٤٩ ، وأساس البلاغة ١ / ١٢٠ ، الصحاح للجوهرى ٢ / ٤٤ .

(٢) ينظر : تفسير أبو السعود ٥ / ١٥ .

التمثيل ووافت العبرة والعظة للمتلقين ، ولقد ختم الله تعالى بقوله : " كذلك يضرب الله الأمثال " أى مثل هذا الضرب العجيب يضرب الأمثال فى كل باب إظهاراً لكمال اللطف والعناية فى الإرشاد والهداية ، وفيه تفخيم لشأن هذا التمثيل وتأكيد لقوله : " كذلك يضرب الله الحق والباطل " باعتبار ابتناء هذا التمثيل الأول ، أو يجعل ذلك إشارة إليهم جميعاً ، وقوله تعالى : " كذلك يضرب الله الأمثال " جملة مستأنفة تذييلية لما فى لفظ الأمثال من العموم ، فهو أعم من جملة "كذلك يضرب الله الحق والباطل " ، لدلالتها على صنف من المثل دون جميع أصنافه ، فلما أعقب بمثل آخر وهو فأما الزبد .... جيئ بالتنبيه إلى الفائدة العامة من ضرب الأمثال ، وحصل أيضاً توكيد جملة : كذلك يضرب الله الحق والباطل لأن العام يندرج فيه الخاص "[1] فإشارة " كذلك " إلى التمثيل السابق أى مثل ذلك الضرب البديع يضرب الله الأمثال وهو المقصود بهذا التذييل ، والإشارة للتنويه بذلك المثل ، وتنبيه الأفهام إلى حكمته ، وحكمة التمثيل وما فيه من المواعظ والعبر ، وما جمعه من التمثيل والكناية التعريضية وإلى بلاغة القرآن وإعجازه ، وذلك بتهييج للمؤمنين وتحد للمشركين ، وليعلم أن جملة " فأما الزبد فيذهب جفاء " لم يُؤت بها لمجرد تشخيص دقائق القدرة الإلهية والصنع البديع بل ولضرب المثل ، فيعلم الممثل له بطريق التعريض بالمشركين والمؤمنين ، فيكون الكلام قد تم عند قوله : كذلك يضرب الله الأمثال شأن التذييل ، ولا شك كان ضرب الأمثال ألطف ذريعة إلى تفهيم القلوب الغبية ، وأقوى وسيلة إلى تسخير النفوس الأبية كيف لا ؟ وهو تصوير للمعقول بصورة المحسوس ، وإبراز لأوابد المعانى فى هيئة المأنوس . والله أعلى وأعلم .

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير ١٢ / ١٦٩ .

المبحث الثالث

(أما) فى سياق الحديث عن اليوم الآخر

سياق الآيات :

﴿ ولا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا واخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ وأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَبْيَضُّ وجُوهٌ وتَسْوَدُّ وجُوهٌ فَأَمَّا الَذِينَ اسْوَدَّتْ وجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ وأَمَّا الَذِينَ ابْيَضَّتْ وجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[1] .

بين يدى السياق :

يخبر الله تعالى عن حال يوم القيامة وما فيه من آثار الجزاء بالفضل وبالعدل ، والآيات تحذر الجماعة المسلمة من التفرق والاختلاف ، وتنذرها عاقبة الذين حملوا أمانة منهج الله قبلها من أهل الكتاب ثم تفرقوا واختلفوا فنزع الله الراية منهم وسلمها إلى للجماعة المسلمة المتآخية ، وفى الآيات يرسم السياق مشهداً من المشاهد القرآنية الفائضة بالحركة والحيوية فنحن فى مشهد هول ، هول لا يتمثل فى ألفاظ ولا فى أوصاف ، ولكن يتمثل فى آدميين أحياء فى وجوه وسمات .... هذه وجوه قد أشرقت بالنور وفاضت بالبشر فابيضت من البشر والبشاشة وهذه وجوه كمدت من الحزن وغبرت من الغم واسودت من الكآبة ، وليست مع هذا متروكة إلى ما هى فيه ولكنه اللذع بالتبكيت والتأنيب وقوله تعالى : " يوم تبيض وجوه " يوم فيه منصوب بالظرف " لهم " فى قوله تعالى : ﴿ وأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ للاستقرار فى " لهم " أى لثبوت العذاب العظيم لهم ، أو على أنه مفعول لمضمر خوطب به المؤمنون تحذيراً لهم من عاقبة التفريق بعد مجيئ البينات ، وترغيباً فى الاتفاق على التمسك بالدين ، أى اذكروا يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، وقد بدأ بالبياض لشرفه وأنه الحالة المثلى وهو لون الفطرة التى فطر الله الناس عليها ؛ ولأن تقديم الشرف على الأخس فى

---

(١) سورة آل عمران : الآيات ١٠٥ – ١٠٧ .

الذكر أحسن ، قال أهل العلم : " وقدم عند وصف اليوم ذكر البياض الذى هو شعار أهل النعيم تشريفاً لذلك اليوم بأنه يوم ظهور رحمة الله ونعمته ، ولأن رحمة الله سبقت غضبه ؛ ولأن فى ذكر سمة أهل النعيم عقب وعيد غيرهم بالعذاب حسرة عليهم ؛ إذ يعلم السامع أن لهم عذاباً عظيماً فى يوم فيه نعيم عظيم "[١] وفى إسناد البياض والسواد للوجوه مع أن الظاهر أن الابيضاض والاسوداد يكون لجميع الجسد مجاز مرسل علاقته الجزئية ، وفى هذا المجاز ما يشير إلى شرف هذا العضو على سائر الأعضاء ، ولأنه أول ما يلقاك من الشخص ، وكذلك لأن الحالات النفسية والعواطف الداخلية تظهر أول ما تظهر على الوجه فهو صورة ما فى الضمير ، وفى تعريف هذا اليوم بحصول بياض وجوه وسواد وجوه فيه تهويل لأمره وتشويق لما يرد بعده من تفصيل أصحاب الوجوه المبيضة والوجوه المسودة ، والبياض من النور ، والسواد من الظلمة ، فمن كان من أهل نور الحق وسم بياض اللون وإسفاره وإشراقه وابيضت صحيفته وأشرقت وسعى النور بين يديه وبيمينه ، ومن كان من أهل ظلمة الباطل وسم بسواد اللون وكسوفه وكمده واسودت صحيفته وأظلمت وأحاطت به الظلمة من كل جانب . أورد القاضى أبو السعود " أن بياض الوجه وسواده كنايتان عن ظهور بهجة السرور وكآبة الخوف "[٢] والأولى أن يكون البياض والسواد " حقيقيين يوسم بهما المؤمن والكافر يوم القيامة ، وهما بياض وسواد خاصان لأن هذا من أحوال الآخرة فلا داعى لصرفه عن حقيقته "[٣] .

والتنكير فى " وجوه " فى الموضعين للتكثير أى تبيض وجوه كثيرة ، وتسود وجوه كثيرة ، وكذلك فى تبيض وتسود طباق من خلاله يظهر الفارق بين أهل الحق

---

(١) ينظر فى ذلك : البحر المحيط – تحقيق / عادل عبد الموجود ، وعلى معوض ٣ / ٣٤٦ – ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط أولى ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م . وتفسير الرازى ٤ / ٣٣٤ – ط دار الكتب العلمية – بيروت – ط أولى ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م ، وينظر : التحرير والتنوير ٣ / ١٨٥ .

(٢) تفسير أبو السعود ٢ / ٦٩ .

(٣) التحرير والتنوير ٣ / ١٨٥ .

وأهل الباطل ، ويظهر جمال وحسن الوجوه من أهل الإيمان ، وظلمة وقبح الوجوه من أهل الكفران وما يترتب على ذلك من الترغيب فى حب الائتلاف ومن الترهيب فى بغض الاختلاف .

بلاغة التفصيل بـ " أما " :

قد أشار السياق إلى أن ههنا فريقين : فريق تفرق على الحق واختلف فى قبوله وفريق وافق الحق وتمسك به ، وقد عقب السياق بما يلفت الأنظار ويسترعى الانتباه بوصف كل فريق بصفته التى اتصف بها جزاء لعمله الذى قدم فى الدنيا ، فطائفة ذات وجوه بيض ، وأخرى ذات وجوه سود ، والنفس المتلقية لهذا البيان القرآنى تسأل : من يا ترى هاتان الطائفتان ؟ وما الذى فعلته كل طائفة حتى استحقت ما استحقت ؟ والاستفهام تولد من العرض المجمل الذى يهجس فى النفس بطلب التوضيح والإفصاح وهذا الإجمال مقصود لتنبيه النفوس فهو يستثيرها نحو معرفة تفاصيل الإجمال وتبيين كل فريق بأوصافه التى لا تلتبس بأوصاف غيره حتى تتخير النفوس المآل الذى تريده فتعمل له بعمله وها هو البيان القرآنى يطالعنا بالتفصيل والإيضاح ، وقد سلك طريقة النشر المعكوس ، وفيه إيجاز لأن أصل الكلام : فأما الذين اسودت وجوههم فهم الكافرون ، يقال لهم أكفرتم ..... إلى آخره ، وتقديم بيان هؤلاء لما أن المقام مقام تحذير عن التشبه بهم مع ما فيه من الجمع بين الإجمال والتفصيل ، والإفضاء بختم الكلام بحسن حال المؤمنين كما بدئ بذلك عند الإجمال ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وجُوهٌ ﴾ وفى التفصيل بـ " أما " كما تقرر اهتمام بالكلام الذى صدرت "أما" به وتقرير وتوكيد ، وفى التعبير عن المسند إليه بالموصول – الذين اسودت وجوههم – دون التعبير بالاسم العلم (الكافرون) مثلاً لما فيه من التعويل على هذه الصفة لغنائها عن الاسم العلم ولما تشير إليه من ذمهم بتحقق كفرهم فى الزمن الماضى ولما تدل عليه من أن هذا الوصف لا طريق إلى تعريفهم إلا به إلا هو لكشف حالهم والتنفير منهم ، دلالة على أن الجزاء من جنس العمل ، فاختلافهم فى الدنيا وتفرقهم على البينات الواضحات ترتب عليه اختلاف وجوههم وتغيرها . قال سدنة البيان : " يؤتى بالمسند إليه اسم

موصول إذا تعين طريقاً لإحضار معناه ، أما إذا لم يتعين طريقاً لذلك فيكون لأغراض أخرى وذلك حسب المقام "[١] . وقد ذكر العلامة الشيخ أبو موسى : " أن المهم فى أنواع التعريف التعريف بالصلة ؛ لأنه تكثر إشاراته "[٢] ، وقد ابتدأ بالذين اسودت وجوههم للاهتمام بالتحذير من حالهم ولمجاورة قوله : وتسود وجوه ، وللابتداء بالمؤمنين ، والافتتاح بحكمهم فيكون مطلع الكلام ومقطعه شيئاً يسر الطبع ويشرح الصدر "[٣] ، ولا يخفى ما فى تقديم حالهم من التعجيل بمساءتهم ، وقوله : أكفرتم على إرادة القول فهو مقول لقول محذوف يحذف مثله فى الكلام لظهوره ، قال أبو عبيدة : " العرب تختصر لعلم المخاطب بما أريد به فكأنه خرج مخرج قولك : فأما الذين كفروا فيقول لهم أكفرتم فحذف هذا واختصر الكلام "[٤] ، والهمزة فيه للإنكار عليهم ، والتوبيخ لهم ، والتعجيب من حالهم ، وفى قوله : أكفرتم : نوع التفات وهو المسمى عند علماء البيان بتلوين الخطاب ، وذلك أن قوله : ﴿ فَأَمَّا الَذِينَ اسْوَدَّتْ وجُوهُهُمْ ﴾ فى حكم الغيبة وقوله بعد ذلك أكفرتم مواجهة ، والمعنى كما ذكر الإمام البقاعى : " أكفرتم يا سود الوجوه وعبيد الشهوات بعد إيمانكم بما جبلتم عليه من الفطر السليمة ، ومكنتم به العقول المستقيمة من النظر فى الدلائل ثم بما أخذ عليكم أنبياؤكم من العهود "[٥] والظاهر كما يقول الزمخشرى : " أنهم أهل الكتاب ، وكفرهم بعد الإيمان تكذيبهم رسول الله ﷺ بعد اعترافهم به قبل مجيئه "[٦] ، وقوله : فذوقوا العذاب : الفاء فيه للتعقيب للإيذان بأن الأمر بذوق العذاب مترتب على كفرهم

---

(١) ينظر : الإيضاح ١ / ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، وجواهر البلاغة للهاشمى ص ١٠٤ – ط مكتبة الآداب بالقاهرة ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م .

(٢) ينظر : خصائص التراكيب للشيخ / محمد أبو موسى ص ١٩٣ – ط مكتبة وهبة – ط خامسة ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م .

(٣) ينظر : البحر المحيط لأبى حيان ٣ / ٢٦ ، وروح المعانى للآلوسى ٤ / ٢٥ .

(٤) ينظر : مجاز القرآن لأبى عبيدة ١ / ١٩ ، وينظر : تفسير الطبرى ٣ / ٩٧ والكشاف ١ / ٤٢٧ .

(٥) ينظر : نظم الدرر ٢ / ١٣٤ .

(٦) الكشاف ١ / ٤٢٧ .

المذكور كما يصرح به قوله سبحانه " بما كنتم تكفرون " فالفاء سببية ، وقيل للمقابلة من غير نظر إلى التسبب ، وليست بمعنى اللام ، ولعله سبحانه أراد بعد إيمانكم "[1] والأمر فى قوله : فذوقوا للإهانة والإذلال وهو من باب الاستعارة فى فذوقوا استعارة تبعية تخييلية ، وفى العذاب استعارة مكنية حيث شبه العذاب بشئ يدرك بحاسة الأكل والذوق تصويراً له بصورة ما يذاق ، وأثبت له الذوق تخييلاً وهو قرينة المكنية ، و " أل" فى العذاب للعهد أى فذوقوا العذاب المعهود الموصوف بالعظمة والذى سبق أن حذركم الله تعالى منه ، ولكنكم لم تعيروا التحذير انتباهاً بل تماديتم فى كفركم وضلالكم حتى أدرككم الموت ، وأنتم على هذا الحال الشنيعة ، وفى قوله : ﴿ فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ فوائد : الأولى أنه لو لم يذكر ذلك لكان الوعيد مختصاً بمن كفر بعد إيمانه فلما ذكر هذا ثبت الوعيد لمن كفر بعد إيمانه ، ولمن كان كافراً أصلياً. الثانية : قال القاضى : " قوله أكفرتم بعد إيمانكم يدل على أن الكفر منهم لا من الله ، وكذا قوله : ﴿ فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾[2] .

والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل (كفرتم – تكفرون) للدلالة على استمرار كفرهم أو على مضيه فى الدنيا ، وقوله تعالى : ﴿ وأَمَّا الَذِينَ ابْيَضَّتْ وجُوهُهُمْ .... ﴾ هو تتمة التفصيل الذى بدئ بذكر أهل السواد ، والرحمة : الجنة وهو من التعبير بالحال عن المحل – مجازاً مرسلاً – والظرفية حقيقية ، وقد يراد بها الثواب ، فالظرفية حينئذ مجازية ، كما يقال فى نعيم دائم ، وعيش الرغد ، وفيه إشارة إلى كثرته وشموله للمذكورين شمول الظرف ، قال العلامة الآلوسى : " ولا يجوز أن يراد بالرحمة ما هو صفة له تعالى إذ لا يصح فيه الظرفية ، ويدل على ما ذكر مقابلتها بالعذاب ومقارنتها للخلود فى قوله تعالى ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ، وإنما عبر عن ذلك بالرحمة ، إشعاراً بأن المؤمن وإن استغرق عمره فى طاعة الله فإنه لا ينال ما ينال إلا

---

(١) ينظر : روح المعانى ٤ / ٢٦ .

(٢) ينظر : تفسير الرازى (مفاتيح الغيب) ٨ / ٣٠٨ .

برحمته تعالى "[١] أ . هـ .

قال صاحب الكشاف : " فإن قلت كيف موقع قوله هم فيها خالدون بعد قوله تعالى فى رحمة الله ؟ قلت : موقع الاستئناف كأنه قيل كيف يكونون فيها ؟ فقيل هم فيها خالدون لا يظعنون عنها ولا يموتون "[٢] والاستئناف بيانى – كما هو واضح – وفى تقديم الضمير ما يفيد خصوصية ذلك لهم دون غيرهم أى هم خاصة فيها خالدون ، فلذلك كانوا يؤمنون فالآية من الاحتباك[٣] إثبات الكفر أولاً دل على إرادة الإيمان ثانياً ، وإثبات الرحمة ثانياً دل على حذف اللعنة أولاً . هذا ... وانظر تفاوت ما بين التقسيمين هناك فقد جمع لمن اسودت وجوههم وبين التعنيف بالقول والعذاب وهنا جعلهم مستقرين فى الرحمة فالرحمة ظرف لهم يشملهم ولما أخبر تعالى أنهم مستقرون فيها بين أن ذلك الاستقرار هو على سبيل الخلود لا زوال منه ولا انتقال ، وأشار بلفظ الرحمة إلى سابق عنايته بهم ، وذكر الخلود للمؤمن ولم يذكر ذلك للكافر إشعاراً بأن جانب الرحمة أغلب وأضاف الرحمة هنا الرحمة إليه ، ولم يضف العذاب إلى نفسه بل قال فذوقوا العذاب ، ولما ذكر العذاب علله بفعلهم ولم ينص هنا على سبب كونهم فى الرحمة ، وقد تضمنت هذه الآيات الطباق فى تبيض وتسود ، وفى ابيضت واسودت وفى أكفرتم بعد إيمانكم ، والتفصيل الذى عليه المدار والتجنيس المماثل فى أكفرتم وتكفرون ، وتأكيد المظهر بالمضمر فى ﴿ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ والتكرار فى لفظ " الله " ومحسنه أنه فى جمل متغايرة المعنى ، والمعروف فى لسان العرب إذا اختلفت الجمل أعادت المظهر لا المضمر ؛ لأنه فى ذكره دلالة على تفخيم الأمر وتعظيمه ، وكذلك تلوين الخطاب ، والحذف فى مواضع ، والله تعالى أعلم.

---

(١) ينظر : روح المعانى ٤ / ٦٢٦ .

(٢) ينظر : الكشاف ١ / ٤٢٧ .

(٣) ينظر فى ذلك : الإيضاح – تحقيق / خفاجى ، والإتقان للسيوطى ٣ / ٢٠٤ وعقود الجمان للسيوطى ١ / ٢٦ ، وينظر : البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها د / عبد الرحمن الميدانى ٢ / ٥٤ .

ب – جزاء الأشقياء والسعداء :

سياق الآيات :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ومَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وسَعِيدٌ فَأَمَّا الَذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وشَهِيقٌ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ والأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ وأَمَّا الَذِينَ سُعِدُوا فَفِي الجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ والأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[1] .

بين يدى السياق :

تأتى هذه الآية فى سياق آيات تتحدث عن القرون السابقة وما حل بهم جزاء تكذيبهم رسلهم وعنادهم لهم ولا يتوقف السياق عند ذلك بل يعبر السياق بالقلب البشرى عن مشاهد الأرض إلى مشاهد القيامة على طريقة القرآن فى وصل الرحلتين بلا فاصل فى السياق ، إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ففى ذلك الآخذ الآليم الشديد الذى يأخذ به الله القرى المكذبة مشابه من عذاب الآخرة تذكر بهذا اليوم وتخيف ، وإن كان لا يراها إلا الذين يخافون الآخرة فتتفتح بصائرهم بهذه التقوى التى تجلو البصائر والقلوب ، والذين لا يخافون الآخرة تظل قلوبهم صماء لا تتفتح للآيات ولا تحس بحكمة الخلق والإعادة ولا ترى إلا واقعها القريب فى هذه الدنيا ، وحتى العبر التى تمر فى هذه الحياة لا تثير فيها عظة ولا فهماً ثم يأخذ السياق فى وصف ذلك اليوم ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ ، وهنا يرتسم مشهد التجمع يشمل الخلق جميعاً على غير إرادة منهم وإنما هو سوق الجميع سوقاً إلى ذلك المعرض المشهود الكل يحضر والكل ينتظر ما سوف يكون ، وقوله تعالى يوم يأت لا تكلم نفس ... قال صاحب الكشاف " فإن قلت فاعل يأت ما هو ؟ قلت

---

(١) سورة هود : الآيان رقم ١٠٣ – ١٠٨ .

الله عز وجل كقوله ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ ﴾[١] ، ﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾[٢] ، ﴿ وجَاءَ رَبُّكَ ﴾[٣] وتعضده قراءة وما يؤخره بالياء وقوله بإذنه ، ويجوز أن يكون الفاعل ضمير اليوم كقوله تعالى ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ ﴾[٤] فإن قلت : بما انتصب الظرف ؟ قلت إما أن ينتصب بلا تكلم ، أو بإضمار اذكر ، وإما بالانتهاء المحذوف فى قوله إلا لأجل معدود " ، وجملة يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه : تفصيل لمدلول جملة ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ ﴾ ، وبينت عظمة ذلك اليوم فى الشر والخير تبعاً لذلك التفصيل ، فالقصد الأول من هذه الجملة هو قوله : فمنهم شقى وسعيد وما بعده ، وأما ما قبله فتمهيد له أفصح عن عظمة ذلك اليوم وقد جاء نظم الكلام على تقديم الكلام وتأخير اقتضاه وضع الاستطراد بتعظيم هول اليوم فى موضع الكلام المتصل لأنه أسعد بتناسب أغراض الكلام ، والظروف صالحة لاتصال الكلام كصلاحية الحروف العاطفة وأدوات الشرط وقوله : لا تكلم إلا بإذنه قصر حقيقى تحقيقى عم النفى فيه حتى شمل كل نفس ، ونفى عنها الكلام مطلقاً إلا إذا أذن الله لنفس فى الكلام ونفس يعم جميع النفوس لوقوعه فى سياق النفى فشمل النفوس البرة والفاجرة وشمل كلام الشافع وكلام المجادل عن نفسه ولعل المقصود من هذا إبطال اعتقاد أهل الجاهلية أن الأصنام لها حق الشفاعة عند الله ، والتعبير بأسلوب القصر يريك الصمت الهائل يغشى الجميع والرهبة الشاملة تخيم على المشهد ومن فيه ، والكلام بإذن لا يجرؤ أحد على طلبه ، ولكن يؤذن لمن شاء فيخرج من صمته بإذنه ، ثم تبدأ عملية الفرز والتوزيع فمنهم شقى وسعيد ، " والشقى هو بيّن الشَّقوة والشِّقوة والشقاوة وأشقاه الله تعالى وشقاه ، والشقاوة ضد السعادة يمدّ ويقصر ، وكل شقاوة

---

(١) سورة البقرة من الآية رقم ٢١٠ .

(٢) سورة الأنعام من الآية رقم ١٥٨ .

(٣) سورة الفجر من الآية رقم ٢٢ .

(٤) سورة يوسف من الآية رقم ١٠٧ .

تعب ولا عكس "[١] والسعيد : السعد : اليمن تقول : سعد يومنا بالفتح يسعد سعوداً والسعودة خلاف النحوسة ... والسعادة خلاف الشقاوة تقول منه سعد الرجل بالكسر فهو سعيد مثل سلم فهو سليم ، وسُعد بالضم فهو مسعود ... وأسعده الله فهو مسعود ، ويقال مسعد "[٢] والشقى : فعيل صفة مشبهة من شقى إذا تلبس بالشقاء والشقاوة أى سوء الحالة وشرها ما ينافر طبع المتصف بها ، والمعنى فمنهم يومئذ من هو فى عذاب وشدة ومنهم من هو فى نعيم ورخاء وقوله وسعيد أى منهم سعيد حذف الخبر لدلالة الأول عليه وفى تقديم الشقى على السعيد فى الذكر لأن المقام مقام التحذير والإنذار قال صاحب المثل السائر " قدم شقى على سعيد لأنه لما كان الكلام مسوقاً فى ذكر التخويف والتحذير ، وجاء فى عقب قصص الأولين ، وما فعل الله بهم من التعذيب والتدمير كان الأليق أن يوصل الكلام بما يناسبه فى المعنى وهو ذكر أهل النار فمن أجل ذلك قدموا فى الذكر على أهل الجنة "[٣] .

بلاغة التفصيل بـ " أما " :

إذا كان هذا حال الأمم والخلائق فى العرض الأكبر ، وأنهم فريقان : شقى مآله ومصيره النار وبئس القرار وسعيد مآله إلى رحمة الله وجنته إذا كان ذلك كذلك كانت رغبة النفوس المتلقية لهذه الأخبار الصادقة شديدة وكان تطلعها لا نهاية له لمعرفة حال الأشقياء والسعداء يوم القيامة وكيف تصير بهم الأمور ولما كان قوله : فمنهم شقى وسعيد : إجمالاً كان تطلب المقام للتفصيل والبيان وفاءً بحق المعانى وإيصالها للنفوس أكبر ، لأنه مقام مجازاة على الأعمال ، مقام تفريق بين الأحوال حتى لا يضيع ثواب العاملين فى زحمة هذا العرض الأكبر فهو يوم لا تظلم فيه نفس ، ولا تترك فيه نفس من غير مجازاة إن خيراً فخيراً ، وإن شراً فشراً ولتعلم كل النفوس أن الخلاص

---

(١) ينظر فى ذلك : كتاب العين ٥/ ١٨٤ ، والصحاح للجوهرى ٧ / ٢٤٤ ، والقاموس المحيط ١ / ١٦٧٧ ، .

(٢) ينظر فى ذلك : تاج العروس ٨ / ١٩٢ ، وتهذيب اللغة ٢ / ٤٤ ، ومقاييس اللغة لابن فارس ٣ / ٧٥ .

(٣) ينظر : المثل السائر لابن الأثير ٢ / ٤٤ ، وينظر : فتح القدير للشوكانى ٣ / ٤٨٣ .

والنجاة فى تتبع حال السعداء وها هو ذا البيان القرآنى يطالعنا صباح مساء بحالهم ويقص علينا من أخبارهم ، والتفصيل قوله تعالى فأما الذين شقوا .... وكما هو معلوم من دلالة أما على التفصيل ومن إفادتها للتوكيد كان موقعها من البلاغة موقعاً لائقاً وكان فى إيثارها على التعبير مجرداً منها – دلالة على الاهتمام بالصياغة وإشارة إلى فخامة المقصود من المعنى المعبر عنه بها .

هذا وفى إيثار الموصول من جملة التفصيل " الذين شقوا – تنفير للنفوس من مآلهم ومصيرهم ، وتقدير لحقيقة شقائهم وإيماء إلى طبيعة جزائهم وناهيك من ترهيب النفوس من سلوك طريقهم ، وإقتفاء آثارهم إنهم الأشقياء ولا علامة يعرفون بها سوى الشقاء قال الإمام البقاعى " ولما كان أكثر الخلق هالكاً مع أن المقام مقام تهديد وتهويل بدأ تعالى بالأشقياء ترتيباً للنشر على ترتيب اللف فقال تعالى فأما الذين شقوا أى أدركهم العسر والشدة "[1] وقد أخبر عنهم أنهم مستقرون فى النار وهى محيطة بهم إحاطة الظرف لا يبرحونها أبداً ليس هذا وفقط إنه استقرار مع تجرعهم أنواع العذاب ومن هذا أن لهم فيها زفيراً وشهيقاً قال أهل اللغة : " الشهيق أقبح الأصوات شَهِق وشَهَق يَشْهَق ويشهِق شهيقاً وشهاقاً وبعضهم يقول شُهوقاً : ردد البكاء فى صدره ، وقيل شهق يشهق : ارتفع ، وشهيق الحمار آخر صوته ، وقيل : شهيق الحمار نهيقه ، ويقال الشهيق : رد النفس ، وهو ضد الزفير وهو من أصوات المكروبين ، والشهيق الأنين الشديد المرتفع جداً "[2] والزَّفر والزفير أن يملأ الرجل صدره غماً ثم هو يزفر به ، وأصل الزفير – كما ذكر الراغب – ترديد النفس حتى تنتفخ منه الضلوع ، ويستعمل غالباً فى أول صوت الحمار وهو النهيق ، والاسم الزفرة والجمع زفرات ، وقيل الزفير من شدة الأنين وقبحه .... والزفير اغتراق النفس للشدة "[3] وإذا كان

---

(١) نظم الدرر ٣ / ٥٧٩ .

(٢) ينظر فى لسان العرب ١٠ / ١٩١ ، ومفردات الراغب ١ / ٥٥٩ ، وأساس البلاغة ١ / ٥١١ .

(٣) ينظر فى لسان العرب ٤ / ٣٢٤ ، وأساس البلاغة ١ / ٤٠١ ، ومفردات الراغب ١ / ٤٣٥ .

الزفير : إخراج الأنفاس بدفع وشدة بسبب ضغط التنفس ، والشهيق عكسه وهو اجتلاب الهواء إلى الصدر بشدة لقوة الاحتياج إلى التنفس فإن التعبير القرآنى خص بالذكر من أحوالهم فى جهنم الزفير والشهيق تنفيراً من أسباب المصير إلى النار لما فى ذكر هاتين الحالتين من التشويه بهم ، وذلك أخوف لهم من الألم "[1] والجملة مستأنفة كأنه كان سائلاً سأل ما شأنهم فيها ؟ فقيل لهم فيها كذا وكذا ، أو منصوبة المحل على الحالية من النار أو من الضمير فى الجار والمجرور ، وقوله خالدين فيها أى بلا انقطاع وعبر عنه بقوله – جرياً على أساليب العرب – ما دامت السماوات والأرض ، ومعناه التأبيد لأنه جرى مجرى المثل ، وإلا فإن السماوات والأرض المعروفة تضمحل يومئذ وقوله إلا ما شاء ربك أى مدة شاءها فإنه لا يحكم لهم بذلك فيها فلا يدخلونها ، ولما كان الحال فى هذه الصورة مقتضياً كما تقدم لتسلية النبى – صلى الله عليه وسلم – عما أخبره به سبحانه فى قوله ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ ﴾[2] من ضيق صدره عبر باسم الرب " ربك " إشارة إلى أنه يحسن إليه بكل ما يسر قلبه ويشرح صدره فقال ربك هذا ... وقد جرى الناس فى هذا الاستثناء على ظاهره ثم أطالوا الاختلاف فى تعيين المدة المستثناه ولعل أرجح ما قيل هو ما استظهره ابن جرير الطبرى حيث قال : " وأولى هذه الأقوال بالصواب القول الذى ذكرناه عن قتادة والضحاك من أن ذلك الاستثناء فى أهل التوحيد من أهل الكبائر أنه يدخلهم النار ، وتظاهرت بذلك الأخبار عن رسول الله ﷺ فغير جائز أن يكون استثناء فى أهل الشرك ، وأن الأخبار قد تواترت عن رسول الله ﷺ أن الله يدخل قومًا من أهل الإيمان به بذنوب أصابوها النار ثم يخرجهم منها فيدخلهم الجنة ، فغير جائز أن يكون ذلك استثناء فى أهل التوحيد قبل دخولها مع صحة الأخبار عن رسول الله ﷺ بما ذكرنا ،

---

(١) ينظر : تفسير أبو السعود ٤ / ٢١٤ ، وينظر : تفسير ابن كثير تحقيق / سامى بن محمد سلامة ٤ / ٣٥١ – ط دار طيبة للنشر والتوزيع ط ثانية ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م .

(٢) سورة هود من الآية رقم ١٢

وإنا وإن جعلناه استثناء فى ذلك كنا قد دخلنا فى قول من يقول : " لا يدخل الجنة فاسق ، ولا يدخل النار مؤمن ، وذلك خلاف مذهب أهل العلم وما جاءت به الأخبار عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – "[١] قال أبو السعود : " ولدفع ما عسى يتوهم من كون استحالة تعلق مشيئة الله تعالى بعدم الخلود بطريق الوجوب على الله تعالى قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ يعنى أنه فى تخليد الأشقياء فى النار بحيث يستحيل خلافة فعال موجب إرادته قاض بمقتضى مشيئته الجارية على سنن حكمته الداعية إلى ترتيب الأجزية على أفعال العباد "[٢] وجملة إن ربك فعال لما يريد استئناف بيانى ناشئ عن الاستثناء ؛ لأن إجمال المستثنى ينشئ سؤالاً فى نفس السامع أن يقول ما هو تعيين المستثنى ، أو لماذا لم يكن الخلود عاماً ؟ وهذا مظهر من مظاهر التفويض إلى الله ، والعدول عن الإضمار إلى الإظهار فى قوله "ربك " ومقتضى الظاهر أن يقال : "إنه " لظهور اسم الرب قبلاً فى قوله ﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ وذلك لتربية المهابة وزيادة التقرير ، ولما كان فعل كل ممكن وتركه جائزاً فى حق الله تعالى وهذا من صفات الكمال آثر لفظ الربّ " ربك " على أى لفظ غيره مع أن فى ختم الآية بذلك – كما يقول البقاعى ترجيةً لأهل النار فى إخراجهم منها زيادة فى عذابهم "[٣] وناهيك عن المبالغة فى قوله : فعَّال .

هذا ولما أتم أمر الأشقياء عطف عليه قسيمهم ليكتمل التفصيل ويزداد البيان فقال : ﴿وأَمَّا الَذِينَ سُعِدُوا ﴾ : أى فازوا بمطالبهم وتيسر أمرهم ، وفى التعبير بالصلة

---

(١) ينظر : جامع البيان للطبرى ١٥ / ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، وينظر : معالم التنزيل للبغوى تحقيق محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرشى ٤ / ٢٠٠ – ط دار طيبة – ط رابعة ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م وينظر معانى القرآن للفراء ٢ / ١٧٨ ، وينظر تفسير ابن كثير ٤ / ٣٥١ ، ٣٥٢ ، وينظر : زاد المسير لابن الجوزى ٤ / ١٦٠ ، ١٦١ – ط المكتب الإسلامى – بيروت – ط ثالثة ١٤٠٤ هـ .

(٢) ينظر : تفسير أبو السعود ٤ / ٢٤٢ .

(٣) نظم الدرر ٣ / ٥٨٠ .

ما يشير إلى حسن مصيرهم الذى هم مقدمون عليه ، ويا ترى كيف يكون مآل السعداء يوم القيامة وقد وصفهم بذلك ربهم تبارك وتعالى أنهم كما تصرح الآية " فى الجنة " وفى معنى الظرف من الإحاطة والشمول ما يشير إلى عظيم العناية بهم ، والاهتمام بشأنهم ، والكلام فى هذا كالكلام فيما سبق خلا أنه لم يذكر فيها ههنا أن لهم فيها بهجة وسروراً كما ذكر فى أهل النار من أنه لهم فيها زفير وشهيق وذلك لأن المقام مقام التحذير والإنذار ، ومعنى خالدين فيها أى لا ينقطع عنهم نعيمها وهو معنى قوله بعد عطاء غير مجذوذ . هذا ... ومعنى الاستثناء هنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمراً واجباً بذاته بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى فله المنة عليهم دائماً ولذا " يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس "[1] وقيل هى فى حق عصاة الموحدين الذين كانوا فى النار ثم أخرجوا منها وعقب ذلك بقوله : عطاء غير مجذوذ أى غير مقطوع لئلا يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثم انقطاعاً أو لبسا أو شيئاً بل ختم بالدوام وعدم الانقطاع كما بين هناك أن عذاب أهل النار فيها دائماً مردود إلى مشيئته وأنه بعدله وحكمته عذبهم ولهذا قال :﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ كما قال : ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾[2] وهنا طيب القلوب وثبت المقصود بقوله عطاء غير مجذوذ " يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت "[3] وفى الختم بذلك من الجزم بالدوام طمأنينة لأهل الجنة زيادة فى نعيمهم عكس ما كان

---

(١) ينظر : صحيح مسلم باب فى صفات الجنة ٨ / ١٧٤ حديث رقم ٧٣٣١ – ط دار الجيل – بيروت + دار الآفاق الجديدة – بيروت – ومسند أبى يعلى تحقيق حسين سليم أسد ٤ / ٤٥ حديث رقم ٢٠٥٢ – ط دار المأمون للتراث – دمشق – ط أولى ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ، وفتح البارى لابن حجر – تحقيق / عبد العزيز بن باز ومحب الدين الخطيب ٦ / ٣٢٦ – ط دار الفكر.

(٢) سورة الأنبياء : من الآية رقم ٢٣ .

(٣) ينظر : صحيح البخارى حديث برقم ٤٧٣٠ ، وصحيح مسلم حديث برقم ٧٣٦٠ ، وينظر : المعجم الكبير للطبرانى تحقيق حمدى عبد المجيد السلفى ١٢ / ٣٦١ حديث برقم ١٣٣٨٠ – ط مكتبة العلوم والحكم – الموصل – ط ثالثة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م .

لأهل النار قال صاحب الظلال : "ومن خلال التعبيير بالتفصيل تشهد الذين شقوا فى النار مكروبى الأنفاس لهم فيها زفير وشهيق من الحر والكتمة والضيق ونشهد للذين سعدوا فى الجنة لهم فيها عطاء دائم غير مقطوع ولا ممنوع وظل هذا التعبير هنا هو المقصود ، وقد علق السياق هذا الاستمرار بمشيئة الله فى كلتا الحالتين وزاد السياق فى حالة الذين سعدوا ما يطمئنهم إلا أن مشيئته اقتضت أن يكون عطاؤه لهم غير مقطوع حتى على فرض تبديل إقامتهم فى الجنة وهو مطلق فرض يذكر لتقرير حرية المشيئة بعدما يوهم التقييد "[1] والله أعلى وأعلم .

(١) ينظر : الظلال ٤ / ٢٦٩ .

المبحث الرابع

أما فى سياق الحديث عن قصة موسى والخضر عليهما السلام :

سياق الآيات :

﴿ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ، أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي البَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وكَانَ وراءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ، وأَمَّا الغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وكُفْراً ، فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وأَقْرَبَ رُحْماً ، وأَمَّا الجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي المَدِينَةِ وكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ويَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ومَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾[1] .

بين يدى السياق :

تتحدث هذه الآيات عن تأويل الخضر عليه السلام لمواقفه الثلاثة التى لم يطق موسى عليه السلام صبراً عليها والتى بثالثتها لم يعد لموسى من عذر بعدما أخذ على نفسه ذلك ، ولما لم يعد للصحبة بينه وبين الخضر مجال قال له الخضر – كما حكى القرآن عنه – هذا فراق بينى وبينك ... والمشار إليه بلفظ " هذا " مقدر فى الذهن حاصل من اشتراط موسى على نفسه أنه إن سأله عن شئ بعد سؤاله الثانى فقد انقضت الصحبة أى هذا الذى حصل الآن هو فراق بيننا قال أبو البقاء " الجمهور على الإضافة يعنى إضافة " فراق " إلى " بينى " أى تفريق وصلنا ويقرأ بالتنوين ، و " بينى " منصوب على الظرف "[2] وإضافة المصدر العامل فى الظرف إلى معموله كما يضاف المصدر إلى مفعوله ، والسين فى سأنبئك للتأكيد لعدم تراخى فى التنبئة ،

---

(١) سورة الكهف : الآيات رقم ٧٨ – ٨٢ .

(٢) ينظر : التبيان فى إعراب القرآن لأبى البقاء العكبرى – تحقيق / على محمد البجاوى ٢ / ٨٥٨ – ط عيسى البابى الحلبى ، وينظر : الدرر المصون للسمين الحلبى ١ / ٣٩٤٥ .

وهى جملة مستأنفة استئنافاً بيانياً تقع جواباً لسؤال يهمس فى خاطر موسى عليه السلام عن أسباب الأفعال التى فعلها الخضر عليه السلام وسأله عنها موسى عليه السلام ، فإنه قد وعده أن يحدث له ذكراً عما يفعله والتأويل تفسير لشئ غير واضح ، وهو مشتق من الأول وهو الرجوع قال صاحب التحرير " شبه تحصيل المعنى على تكلف بالرجوع إلى المكان بعد السير إليه .... وفى جعل صلة الموصول عدم الاستطاعة على الصبر دون أن يقال بتأويل ما فعلت أو بتأويل ما رأيت ونحوهما نوع تعريض به عليه السلام ، وعتاب على الاستعجال وعدم الصبر إلى أن يأتيه إحداث الذكر حسبما وعده "[1] .

بلاغة التفصيل بـ " أما " :

بعد هذه الرحلة التى قطعها موسى مع الخضر عليهما السلام كان لابد أن يكشف الخضر لموسى عليهما السلام عن هذه الحقائق وما تنطوى عليه من الحكمة والموعظة وإلا فكيف لموسى أن يتابع أحداثاً لم يطق عليها صبراً وفى قوله سأنبئك بتأويل وعد فورى من الخضر بكشف الغطاء وإماطة اللثام عن هذه الأمور وفيها من الإجمال والإبهام فى كل واقعة ما يدفع إلى معرفة تفاصيلها وإلى كشف أسرارها كيف لا ؟ وظاهر كل أمر من هذه الأمور الثلاثة لا تقبله نفس ولا يطيقه حس ، ومع ذلك فالبيان القرآنى حريص كل الحرص على ألا يدع فجوة بينه وبين متلقيه تسلمه إلى الحيرة أو تزرع فى قلبه الشك ولهذا فإن من تمام البلاغة القرآنية أن تعقب هذه الأحداث التى مرت مبهمة بالتفصيل والبيان وها هو يطالعنا بقوله : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ ﴾ وأما هذه حرف موضوع لتفصيل مجمل ، والإجمال كما هو معلوم يقتضى استشراف السامع إلى تفصيله والتصدى لتفصيله يكون بمنزلة سؤال مفروض كأن المتكلم يقول إن شئت تفصيله فتفصيله كذا وكذا فإذا جيئ بالتفصيل بأما المتضمنة معنى الشرط أما السفينة دل ذلك على اهتمام المتكلم بذلك التفصيل فيفيد

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير ١٥ / ١١٦ ، ١١٧ .

حينئذ تقوية الكلام وتقريره فى النفوس وقوله أما السفينة أل فى السفينة للعهد الذكرى أى السفينة التى خرقتها فكانت لمساكين أى لضعفاء لا يقدرون على مدافعة الظلمة ولعل المراد من الضعف هنا قلة المال لأنهم يرتزقون من جهدهم ويُرق لهم لأنهم يكدحون دهرهم لتحصيل عيشهم وقوله يعملون فى البحر صفة لمساكين " وإسناد العمل إلى الكل حينئذ إنما هو بطريق التغليب أو لأن عمل الوكلاء عمل الموكلين "[١] يؤكد ذلك ما ذهب إليه صاحب الكشاف من أنهم كانوا عشرة إخوة خمسة منهم زمنى ، وخمسة منهم يعملون فى البحر "[٢] ولما كان التعييب من فعله أسنده إليه خاصة تأدباً مع الله فقال فأردت أن أعيبها ، فإن تفويت منفعتها بذلك ساعة من نهار وتكليف أهلها لوحاً يسدونها به أخف ضرراً من تفويتهم منفعتها أخذاً ورأساً بأخذ الملك ، ولم أرد إغراق أهلها كما هو المتبادر إلى الفهم ، وهذه الجملة ﴿ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ متفرعة على كل من جملتى : ﴿ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ ﴾ ، و ﴿ وكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ ﴾ فكان حقها التأخير عن كلتا الجملتين بحسب الظاهر ، ولكنها قدمت خلافاً لمقتضى الظاهر لقصر الإهتمام والعناية بإرادة إعابة السفينة حيث كان عملاً ظاهره الإنكار وحقيقته الصلاح زيادة فى تشويق موسى إلى علم تأويله ؛ لأن كون السفينة لمساكين مما يزيد السامع تعجباً فى الإقدام على خرقها قال صاحب الكشاف : " فإن قلت : قوله : فأردت أن أعيبها مسبب عن خوف الغصب عليها فكان حقه أن يتأخر عن السبب فلم قدم عليه ؟ قلت النية به التأخير ، وإنما قدم للعناية ولأن خوف الغصب ليس هو السبب وحده ولكن مع كونها لمساكين فكان بمنزلة قولك : زيد ظنى قائم والمعنى : فأردت أن أعيبها ففعلت قال صاحب التحرير وإنما لم يقل فعبتها – يعنى أثر التعبير بالمصدر المؤول من أن والفعل على المصدر الصريح ليدل على أن فعله وقع عن قصد وتأمل ، وقد تطلق الإرادة على القصد أيضاً ، وفى اللسان عزو ذلك إلى

---

(١) ينظر : تفسير أبو السعود ٥ / ٢٣٧ .

(٢) ينظر : الكشاف ٢ / ٦٩١ .

(٣) ينظر : الكشاف ٢ / ٦٩١ .

سيبويه "[١] وتصرف الخضر فى أمر السفينة تصرف يرعى المصلحة الخاصة عن إذن من الله بالتصرف فى مصالح الضعفاء ، وقوله : ﴿ وكَانَ ورَاءَهُم مَّلِكٌ ﴾ جاء فى معاجم اللغة أن " الوراء ما لا يناله الحس ولا العلم حيثما كان من المكان فربما اجتمع أن يكون الشئ وراء من حيث إنه لا يعلم ، ويكون أماماً فى المكان ووراء بمعنى خلف ، وقد يكون بمعنى قُدَّام وهى من الأضداد ... وكان وراءهم ملك أى أمامهم "[٢] والوراء اسم الجهة التى خلف ظهر من أضيف إليه وذلك الاسم ويستعار الوراء لحال تعقب شيئاً ، وحال ملازمه طلب شئ شيئاً بحق وحال الشئ الذى سيأتى قريباً كل ذلك تشبيه بالكائن خلف شئ لا يلبث أن يتصل به قال البقاعى : " ولعله عبر بلفظ وراء كناية عن الإحاطة بنفوذ الأمر فى كل وجه وارهم ووراوها " [٣] وقوله : يأخذ كل سفينة : صفة لملك وفى العبارة إيجاز بالحذف حيث حذف الصفة لقوله سفينة ، والمعنى كل سفينة سليمة أو صالحة وقد قرئ بذلك "[٤] وورد فى معاجم اللغة أن الغصب : أخذ الشئ قهراً ظلماً تقول غصبه منه ، وغصبه عليه بمعنى ، والاغتصاب مثله ، والشئ غصب ومغصوب "[٥] ثم يعطف البيان القرآنى قوله : وأما الغلام على قوله أما السفينة تتمة للتفصيل وتكميلاً للبيان وهو تفصيل ثانى الحادثتين وهو قتل الخضر عليه السلام للغلام ، والغلام فى اللغة : " غَلِم يغْلَم غَلَما وغِلمة أى غُلب شهوة والمغليم يستوى فيه المذكر والمؤنث .... وغلام بين الغُلوم والغلاميّة وهو

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير ١٥ / ١١٨ ، وينظر : لسان العرب ٣ / ١٨٧ .

(٢) ينظر فى ذلك : لسان العرب ١ / ١٩٣ ، وكتاب العين ٨ / ٣٠٠ ، وأساس البلاغة ٢ / ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، وينظر : نزهة الأعين النواظر ١ / ٦٠٨ ، والتوقيف ١ / ٧٢٣ .

(٣) ينظر : الدرر ٤ / ٤٩٦ ، وينظر : البحر المحيط ٦ / ١٤٦ .

(٤) ينظر : الإيضاح ١ / ١٧٨ ، ومختصر السعد ١ / ١٦٣ ، وبغية الإيضاح ١ / ١٧٨ ، والبلاغة العربية ١ / ٥١٠ .

(٥) ينظر : لسان العرب ١/ ٦٤٨ ، والصحاح ٢/ ٢١٣ ، وتاج العروس ٣ / ٤٨٤ ، والمحيط فى اللغة ٥ / ٩ ، والتعريفات للجرجانى – تحقيق / إبراهيم الإبيارى ١ / ٢٠٨ – ط دار الكتاب العربى – بيروت – ط أولى ١٤٠٥ هـ .

الطارّ الشارب (طرّ الشارب : طلع ونبت) ويقال غلام بين الغلومة والغلوميـــة .... والجمع غلمة وغلمان ، واغتلم الغلام إذا بلغ حد الغلومة ، ولما كان من بلغ هذا الحد كثيراً ما يغلب عليه الشبق قيل للشبق : غلمة واغتلم الفحل ، والغلمة بالضم شـــهوة الضّراب "[١] ولم يصرح القرآن الكريم بكفرانه أو بكفره إشعاراً بعـــدم الحاجـــة إلى الذكر لظهوره وفى العبارة إيجاز بالحذف والمعنى كان كافراً وقرأ ابن عباس وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين ويراد بأبويه أبوه وأمه ثنى تغليباً من باب القمـــرين فى القمر والشمس وهى تثنية لا تنقاس "[٢] وقوله فخشينا : حكاية لقوله تعـــالى بمعـــنى فكرهنا وضمير الجماعة فى قوله تعالى فخشينا وقوله فأردنا – بعده – عائـــدان علـــى المتكلم الواحد بإظهار أنه مشارك لغيره فى الفعل وهذا الاستعمال يكون من التواضـــع لا من التعاظم ؛ لأن المقام مقام الإعلام بأن الله أطلعه على ذلك وأمره فناسبه التواضع قال الإمام البقاعى " ولما كان يحتمل عند الخضر عليه السلام أن يكون هذا الغلام مع كفره فى نفسه سبباً لكفر أبويه إن كبر ، وكان أمر الله له بقتله مثل فعل مـــن يخشـــى ذلك أسند الفعل إليهما فى قوله فخشينا أن يرهقهما أى يغشيهما ويلحقهما إن كـــبر بمحبتهما له أو بجراءته وقسوته طغياناً أى تجاوزاً فى الظلم وإفراطـــاً فيـــه ، وكفـــراً لنعمتهما فيفسد دنياهما أو يحملهما حبهما له على الطغيان والكفر بالله طاعة فيفســـد دينهما "[٣] قال صاحب الكشاف " إنما خشى الخضر ذلك لأن الله تعالى أعلمه بحالـــه وأطلعه على سر أمره وأمره إياه بقتله "[٤] والملاحظ فى القرآن كلـــه أن الله تعـــالى لا ينسب السوء إلى نفسه أما الخير والنعم فكلها منسوبة إليه وفى هذه الآية (فخشـــينا وأردنا) فيها اشتراك فى العمل : قتل الغلام ، والإبدال بخير منه حسناً فجاء بالضـــمير الدال على الاشتراك ، فى الآية إذن جانب قتل وجانب إبدال فجاء جانب القتل مـــن

---

(١) ينظر فى ذلك : كتاب العين ٤ / ٤٢٢ ، ولسان العرب ١٢ / ٤٣٩ ، ومفرادت الراغب ٢ / ١٦١ .

(٢) ذكره صاحب البحر المحيط ٦ / ١٤٦ .

(٣) ينظر : نظم الدرر ٤ / ٤٩٧ .

(٤) ينظر : الكشاف ٢ / ٦٩٢ .

الخضر وجاء الإبدال من الله تعالى لذا جاء الفعل مثنى والزكاة : الطهارة من الذنوب والأخلاق الرديئة ، ورُحْماً : انتصابه على التمييز ومعناه الرحمة والعطف وفى قوله زكاة مراعاة لقول موسى عليه السلام : ﴿أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً ﴾[1] ولما كان التعويض عن هذا الولد لله وحده أسند الفعل إليه أن يبدلهما : ربهما أى المحسن إليهما بإعطائه وأخذه وهذا البدل يمكن أو يكون الصبر ، ويمكن أن يكون ولداً آخر وهو المنقول ، وأنها كانت بنتاً "[2] وأفعل ليست للتفضيل لأن ذلك الغلام لا زكاة فيه ولا رحمة ، والظاهر أن قوله : وأقرب رحماً أى رحمة والديه أو وصل الرحم وبهذا يكون الضرر اللاحق لهما بالتأسف عليه أدنى من الضرر اللاحق لهما عند كبره بإفساد دينهما أو دنياهما ، وفى التعرض لعنوان الربوبية " ربهما " والإضافة إليهما ما لا يخفى من الدلالة على إرادة وصول الخير لهما ، وقوله تعالى : وأما الجدار ... عطف على قوله : أما السفينة وقوله : أما الغلام تتميماً لتفصيل الإجمال فى قوله : سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ، فهو تأويل وتفصيل للحادثة الثالثة وهى حادثة الجدار الذى أعاد بناءه بعدما كان ينقض فى تلك القرية التى استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما ، و"أل" فى الجدار للعهد الذكرى لأنه سبق ذكره فى قوله ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً ﴾ أى وأما الجدار المعهود فكان لغلامين ، وإذا كان الغلام هو ما نبت شاربه على ما سبق معناه فى أقوال أهل العلم ، وهو الصغير من الأولاد - أضاف هنا صفة للغلامين وهو اليتم - يتيمين - فدل بهما على كونهما دون البلوغ ، وحفظ المال لليتيم قد أوصى به القرآن الكريم والسنة المطهرة وحث على عدم تضيعه فاطلق الخضر عليه السلام من هذه القاعدة وتصرف فى شأن الجدار عن إرادة الله اللطف باليتيمين جزاء لأبيهما على صلاحه قال الإمام البقاعى " ولما كانت القرية لا تنافى التسمية بالمدينة ، وكان التعبير بالقرية أولاً أليق لأنها مشتقة من معنى الجمع فكان أليق بالذم فى ترك الصيانة لإشعاره ببخلهم حالة الاجتماع وبمحبتهم للجمع والإمساك وكانت المدينة بمعنى الإقامة ،

---

(١) سورة الكهف : من الآية رقم ٧٤ .

(٢) ينظر : الكشاف ٢ / ٦٩٢ ، ونظم الدرر ٤ / ٤٩٧ .

فكان التعبير بها أليق للإشارة به إلى أن الناس يقيمون فيها فينهدم الجدار وهم مقيمون فيأخذون الكنز – قال فى المدينة فلذلك أقمته احتساباً "[١] واختلف فى الكنز ، فقيل مال مدفون من ذهب وفضة ، وقيل صحف فيها علم وقيل غير ذلك والظاهر لإطلاقه أنه مال "[٢] وقوله : وكان أبوهما صالحاً : اعتداد بصلاح أبيهما وحفظ لحقه فيهما ، وقيل بينهما وبين الأب الذى حفظا فيه سبعة آباء واستظهر أبو حيان أن أباهما هو الأقرب إليهما الذى ولدهما دنية "[٣] ولما كان الإبلاغ إلى حد البلوغ والاستخراج فعل الله وحده أسند إليه خاصة فقال : فأراد ربك ، فأسند الإدارة إلى الله تعالى دون القصتين السابقتين ، لأن العمل فيهما كان من شأنه أن يسعى إليه كل من يقف على سره ؛ لأن فيهما دفع الفساد عن الناس بخلاف قصة الجدار فتلك كرامة من الله تعالى لأبى الغلامين ، وفى إضافة الرب إلى ضمير موسى عليه السلام دون ضميرهما تنبيه له عليه السلام على تحتم كمال الانقياد والاستسلام لإرادته سبحانه ووجوب الاحتراز عن المناقشة فيما وقع بحسبهما من الأمور المذكورة ، وفى إيثار لفظ الرب : أى المحسن إليك بهذه التربية إشارة إلى ما فعل بك من مثلها قبل النبوة كما بين وقوله : أن يبلغا أشدهما أى حلمهما وكمال رأيهما ويستخرجا بالكلية كنزهما من تحت الجدار ، ولولا أنى أقمته لانقض وخرج الكنز من تحته قبل اقتدارهما على حفظ المال وتنميته وضاع ، وقوله رحمة من ربك فيه ثلاثة أوجه : أوضحها أنه مفعول له ، الثانى : أن يكون فى موضع الحال من الفاعل أى أراد ربك راحماً وهى حال لازمة ، الثالث : أن ينتصب انتصاب المصدر ؛ لأن معنى فأراد ربك أن يبلغا معنى فرحمهما "[٤] ، وفى التعرض لعنوان الربوبية " ربك " أى الذى أحسن تربيتك وأنت فى حكم اليتيم فكان التعب فى إقامة الجدار مجاناً أدنى من الضرر اللازم من سقوطه لضياع الكنز وفساد الجدار ، وقد

---

(١) ينظر : نظم الدرر ٤ / ٤٩٨ .

(٢) ينظر : الكشاف ٢ / ٦٩٣ ، ونظم الدرر ٤ / ٤٩٨ ، والبحر المحيط ٦ / ١٤٧ .

(٣) ينظر : البحر المحيط ٦ / ١٤٧ .

(٤) ينظر : الكشاف ٢ / ٦٩٣ ، وينظر : الدر المصون للسمين ١ / ٣٩٤٨ .

دل هذا على أن صلاح الآباء داع إلى العناية بالأبناء ، وفى هذا تصريح بما يزيل إنكار موسى عليه تصرفاته هذه بأنها رحمة ومصلحة ، فلا إنكار فيها بعد معرفة تأويلها ، ثم زاد بأنه فعلها عن وحى من الله ؛ لأنه لما قال وما فعلته عن أمرى علم موسى أن ذلك بأمر من الله تعالى لأن النبى إنما يتصرف عن اجتهاد أو عن وحى ، فلما نفى أن يكون فعله ذلك عن أمر نفسه تعين أنه عن أمر الله تعالى ، وإنما أوثر نفى كون فعله عن أمر نفسه على أن يقول وفعلته عن أمر ربى تكملة لكشف حيرة موسى وإنكاره لأنه لما أنكر عليه فعلاته الثلاثة كان يؤيد إنكاره بما يقتضى أنه تصرف عن خطأ ، وعلى ذلك يكون قوله تعالى وما فعلته عن أمرى تأكيداً لقوله : رحمة من ربك ، وهنا قد تم تفصيل ما أجمل من قبلُ ووضح المراد الربانى من وراء كل حادثة وقعت قد خفى سرها على موسى عليه السلام وكأنى بنبى الله موسى عليه السلام وقد اطمأنت نفسه وهدأت ثأرته – وكذلك كل نفس تتابع البيان القرآنى بتأمل فكما أنها وقعت قبل فى حيرة الإجمال والإبهام أو قل قصد البيان القرآنى أن يضعها فيه – كذلك استنفذها بالبيان والإيضاح والتفصيل ترضية لها وإتماماً للعبرة والعظة التى تكمن فى القصص القرآنى ، ثم تختتم الآيات بقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴾ وقوله : ذلك إشارة إلى العواقب المنظومة فى سلك البيان وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد درجتها فى الفخامة ، قال صاحب التحرير " وجملة ذلك تأويل .... فذلكة للجملة التى قبلها ابتداء من قوله : أما السفينة ، فالإشارة بذلك إلى المذكور فى الكلام السابق وهو تلخيص للمقصود .... وتسطع مضارع اسطاع حذف تاء الاستفعال تخفيفاً لقربها من مخرج الطاء ، والمخالفة بينه وبين قوله : تستطع للتفنن تجنباً لإعادة لفظ بعينه مع وجود مرادفه ، وابتدأ بأشهرهما استعمالاً وجئ بالثانية بالفعل المخفف لأن التخفيف أولى به لأنه إذا كرر تستطع يحصل من تكريره ثقل "[1] ، وقيل إن عدم الحذف من الأولى وحذف التاء من الثانية فهى مقام مفارقة ولم يتكلم بعدها الخضر بكلمة ،

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير ١٥ / ١٢٠ .

وفارق موسى عليه السلام فاقتضى الحذف من الفعل "[١] وهذا النوع من الحذف أسماه العلماء بالاقتطاع ، وعرفوه بأنه " حذف بعض حروف الكلمة الواحدة تخفيفاً على مخارج الحروف ، أو لداعى السرعة ، أو لأجل القافية فى الشعر ، أو الفاصلة فى النثر ، أو التحبب فى النداء ، أو نحو ذلك من دواع بلاغية "[٢] وأقول لقد راعى السياق القرآنى الحالة النفسية لسيدنا موسى عليه السلام قبل أن يعرف تأويل سبب تلك الأفعال التى أنكرها فناسب إظهار التاء فى تستطع لبيان ثقل هذا الأمر عليه بسبب الهم والفكر الحائر ، فصار بناء الفعل ثقيلاً خمسة أحرف ، فناسب ثقل الهم ثقل الفعل ، وحذف التاء من كلمة تسطع مما جعل بناء الفعل مخففاً أربعة أحرف ، وهذا التخفيف مناسب للتخفيف فى مشاعر سيدنا موسى عليه السلام بعد أن علم الحكمة من أفعال الخضر عليه السلام فارتاحت نفسه وزال ثقلها ، والله أعلى وأعلم .

---

(١) ينظر : بلاغة الكلمة فى التعبير القرآنى د/ فاضل صالح السامرائى ص ١٩ – ط دار عمار – عمان – الأردن – ط ثانية ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م .

(٢) ينظر : البلاغة العربية ٢ / ٤٦ ، وينظر مختصر السعد ١ / ٢٨٩ ، والبرهان للزركشى ٣ / ١١٧ ، وينظر : أسرار البيان فى التعبير القرآنى – د/ فاضل السامرائى ١ / ٤ .

المبحث الخامس

أما فى سياق الحديث عن قصة موسى والخضر عليهما السلام :

سياق الآيات :

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لاَّ يَسْتَوُونَ ، أَمَّا الَذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ المَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، وأَمَّا الَذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾[1] .

بين يدى السياق :

تتحدث هذه الآيات عن الجزاء الذى أعده الله تعالى لعباده المؤمنين الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع فهم يسهرون ليلهم فى طاعة الله تعالى والناس من حولهم نيام ولهذا لما كان فعلهم وتقربهم إلى الله على هذا النحو فى خفاء بحيث لا يطلع عليه أحد من المخلوقات كان جزاؤهم من جنس عملهم وكان قد أخفى الله تعالى ما أعده الله لهم من الجزاء والعطاء ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً .... ﴾ فرع بالفاء على ما تقدم من الآيات من الوعد للمؤمنين والوعيد للكافرين ، استفهام بالهمزة مستعمل فى إنكار المساواة بين المؤمن والكافر ، وهو إنكار بتنزيل السامع منزلة المتعجب من البون بين جزاء الفريقين فى ذلك اليوم ، فكان الإنكار موجهاً إلى ذلك التعجب فى معنى الاستئناف البيانى ، وفى الجملة إخبار عن عدل الله وكرمه ، وأنه لا يساوى فى حكمه يوم القيامة من كان مؤمناً بآياته متبعاً لرسله بمن كان فاسقاً أى خارجاً عن طاعة ربه مكذباً لرسله إليه قال صاحب الكشاف " كان مؤمناً وكان فاسقاً محمولان على لفظ " مَنْ " ولا يستوون محمول على المعنى بدليل قوله تعالى أما

---

(١) سورة السجدة : الآيات رقم ١٨ – ٢٠ .

(٢) سورة السجدة : الآية رقم ١٧ .

الذين آمنوا .... وأما الذين فسقوا "[١] والمعنى أى أبعد ظهور ما بينهما من تباين البيّن يتوهم كون المؤمن الذى حكيت أوصافه الفاضلة كالفاسق الذى ذكرت أحواله لا يستوون قال أبو السعود " قوله لا يستوون : التصريح به مع إفادة الإنكار لنفى المشابهة بالمرة على أبلغ وجه وآكده لبناء التفصيل الآتى عليه "[٢] والكاف للتشبيه فى الجزاء والمعلوم أن نفى الاستواء ونحوه بين شيئين يراد به غالباً تفضيل أحدهما على مقابله بحسب دلالة السياق كما هو الحال فى هذه الآيات – وقد مر بنا – أن أصل الفسق الخروج عن الطاعة وأحكام الشرع مطلقاً فهو أعم من الكفر وقد يخص به كما فى قوله تعالى : ﴿ ومَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾[٣] وكما هنا لمقابلته بالمؤمن ، ويشير الإمام البقاعى إلى سر التعبير بالفسق هنا حيث يقول : " لما كان السياق منسوقاً على دليل ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع ... الآية فكان الكافر خارجاً عن محيط ذلك الدليل الذى لا يخفى بوجه على أحد له سمع وبصر وفؤاد – اقتضى الحال التعبير بالفسق الذى هو الخروج عن محيط ، فقال فاسقاً أى راسخاً فى الفسق خارجاً عن دائرة الإذعان "[٤] ، وجملة لا يستوون عطف بيان للمقصود من الاستفهام ، وإنما لم يقل لا يستويان ؛ لأنه لم يرد مؤمناً واحداً وفاسقاً واحداً بل أراد جميع المؤمنين وجميع الفاسقين "[٥] .

---

(١) الكشاف ٣ / ٥٢٠ ، وينظر : تفسير أبو السعود ٧ / ٨٥ .

(٢) تفسير أبو السعود ٧ / ٨٥ .

(٣) سورة النور : من الآية ٥٥ .

(٤) نظم الدرر ٦ / ٥٩ .

(٥) ينظر : تفسير الخازن ٥ / ٢٢٦ – ط دار الفكر – بيروت – لبنان – ط ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ، وينظر : تفسير البغوى (معالم التنزيل) ٦ / ٣٠٧ ، وينظر : الكشف والبيان للثعالبى – تحقيق / الإمام أبى محمد ابن عاشور ٧ / ٣٣٣ – ط دار إحياء التراث العربى – بيروت – ط أولى ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م .

بلاغة التفصيل :

إذا كانت عدالة الله قد اقتضت عدم التسوية بين المؤمن وبين الفاسق وأنهم فى ميزان الله تعالى مختلفون – أثار هذا التعبير بنفى الاستواء فضول النفوس المتلقية للبيان القرآنى ، وأهمَّها أن تتعرف على المصير مفصلاً أن يكون هؤلاء ؟ وأين يكون أولئك ؟ وهل انعدام التسوية بين الفريقين فى الدنيا سيترتب عليه تفريق بينهما فى الدار الآخرة ؟ كل هذا وغيره أوحى به الإجمال الناشئ من سياق العبارة التى ابتدأت بالإنكار واختتمت بنفى التسوية المضمن التوكيد على الإنكار السابق ؛ ولهذا فالبيان القرآنى يعالج هذا الموقف بالبيان والتفصيل ولكن بعد أن يترك الإجمال يعمل عمله فى النفوس وهذا عين الاهتمام بالنفس المتلقية وإلا فما الداعى من سوق العبارة مجملة مرة ومفصلة أخرى ؟ ! وفى إيثار التفصيل " بأما " وما تسحبه على العبارة التى تتصدرها من الإيحاء بالجواب على السؤال التى ضمنته جملة الإجمال وما فى ذلك من الاهتمام بالكلام وكذلك التقرير والتوكيد وتأمل قوله فأما الذين آمنوا وما فيه من التفصيل والتوكيد والبيان والجملة تفصيل لمراتب الفريقين فى الآخرة بعد ذكر أحوالهما فى الدنيا وبدأ بالمؤمنين لأن الحديث عنهم ابتداء وفى ذلك لف ونشر مرتب وفيه من المباغتة بجزاء المؤمنين الطائعين ترغيباً فى الطاعة وتحبيباً فى تحقيق العبادة على الوجه الذى أراده الله واهب الحياة وواهب العطاء وفى التعرض لعنوان الصلة – الذين آمنوا – ثناء عليهم ، وإثارة إلى أن ما هم فيه من النعيم إنما كان بسبب هذا الإيمان الذى رسخ فى نفوسهم وإنقادت له جوارحهم حتى أنهم لتتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ، والعمل الصالح : كل عمل أريد به وجه الله تعالى وكان فعله على هدى ما جاء به الكتاب وبينته السنة المطهرة ، وإذ كان مفهوم الإيمان عند أهل السنة والجماعة أنه : " اعتقاد بالجنان ، وإعلان باللسان ، وعمل بالجوارح والأركان "[1]

---

(١) ينظر فى ذلك : شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة لهبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائى تحقيق د/ أحمد سعد حمدان ١٨١/١– ط دار طيبة – الرياض ١٤٠٢هـ=

كان العمل الصالح داخلاً فى الإيمان ، لكنه ذكر معطوفاً على العام (آمنوا) إشارة إلى عظيم منزلة العمل الصالح ، وأنه آية قرار العقيدة الصحيحة المعافاة من الدغل " [١] ، وهذا ما أسماه علماء البلاغة بذكر الخاص بعد العام وعرفوه بأنه : " أن يذكر الخاص داخلاً فى عموم جنسه ثم يذكر ثانياً وحده تعظيماً له وتنويهاً بشأنه "[٢] وقوله : فلهم جنات المأوى : أى التى فيها المساكن والدور والغرف العالية قال صاحب الكشاف : " جنات المأوى : نوع من الجنان " [٣] والمأوى : المكان الذى يؤوى إليه أى يرجع إليه والتعريف باللام فيه للعهد أى مأوى المؤمنين قال تعالى ﴿ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴾[٤] ، ولك أن تجعل اللام عوضاً عن المضاف إليه أى مأواهم بقرينة قوله فى مقابله ، فمأواهم النار وإضافة جنات إلى المأوى من إضافة الموصوف إلى الصفة لقصد التخفيف وهى واقعة فى الكلام ، والمعنى فلهم الجنات المأوى لهم أى الموعودون بها ولأنها المأوى السكن الحقيقى ، والدنيا منزل مرتحل عنه لا محالة ، ولا يبعد أن يكون فيه رمز إلى ما ذكر من تجافيهم عن مضاجعهم التى هى مأواهم فى الدنيا ، واللام فى " فلهم " لام الملك ، وفيها مزيد تشريف وإكرام وإيذان بأنهم لا يخرجون منها كما لا يخرج المالك

= وينظر مصباح الظلام للشيخ / عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ دراسة وتحقيق الشيخ / عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم الزير آل أحمد ٢ / ٨ – ط وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – ط أولى ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م ، وينظر : طبقات الشافعية الكبرى للإمام تاج الدين السبكى تحقيق محمود محمد الطناحى ، وعبد الفتاح محمد الحلو ١ / ١٠٢ – ط هجر للطباعة والنشر – ط ثانية ١٤١٢ هـ .

(١)ينظر : علم المعانى د / محمود توفيق محمد سعد ٢ / ٢٠٥ ، ٢٠٦ – ط دار الكتب الجامعية بالمنوفية ١٤٢٣ / ١٤٢٤ هـ .

(٢) ينظر فى ذلك : الإيضاح تحقيق خفاجى ١ / ٣٠٣ ، ومختصر السعد ضمن الشروح ٣ / ٢١٧ – ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – بدون ، وينظر : حاشية الدسوقى ضمن الشروح ٣ / ٢١٧ ، وينظر : الإطناب أنواعه وقيمته البلاغية – د/ محمود شاكر القطان ص ٢٦ – ط مكتبة دار التراث بالمدينة المنورة – ط أولى ١٩٨٦ م .

(٣) الكشاف ٣ / ٥٢٠ .

(٤) سورة النجم : الآية ١٥ .

من ملكه "[١] وقوله : نزلاً : أى ثواباً والنزل فى الأصل ما يعد للنازل من الطعام والشراب والصلة ثم عمَّ كل عطاء "[٢] وفيه مجاز مرسل لعلاقة الإطلاق والتقييد ، وقوله : بما كانوا يعملون أى بسبب الذى كانوا يعملونه فى الدنيا من الأعمال الصالحة على أن " ما " موصولة والعائد محذوف ، والباء سببية ، وكون ذلك سبباً بمقتضى فضله تعالى ووعده عز وجل فلا ينافى حديث " ولا يدخل أحدكم الجنة بعمله "[٣] إيثار التعبير بالصلة – كانوا يعملون – إشارة إلى صدور ذلك العمل منهم على وجه التحقيق والمواظبة والمداومة عليه ، وتتمة للتفصيل عطف قوله تعالى : وأما الذين فسقوا على قوله : أما الذين آمنوا والمعنى أى خرجوا عن الطاعة فكفروا وارتكبوا المعاصى ، وفى التعرض لما فى حيز الصلة من وصفهم بالفسق تشنيع لهم على هذا الفعل الذى خرجوا به من دائرة الإيمان فاستحقوا أن تكون النار هى المكان الذى يأوون إليه قال الإمام الفخر : " إن العمل الصالح له مع الإيمان أثر أما الكفر إذا جاء فلا التفات إلى الأعمال فلم يقل فأما الذين فسقوا وعملوا السيئات؛ لأن المراد من فسقوا كفروا ولو جعل العقاب فى مقابلة الكفر والعمل لظن أن مجرد الكفر لا عقاب عليه "[٤] فمأواهم أى فمسكنهم ومحلهم النار ، ويجوز أن تكون هذه الجملة من باب المشاكلة لأنه لما ذكر فى أحد القسمين فلهم جنات المأوى ذكر فى الآخر فمأواهم النار ، وفى هذه العبارة من التهكم والإهانة حيث إن النار لا صلاحية فيها للإيواء لوجه من

---

(١) ينظر : غرائب القرآن ورغائب والفرقان للنيسابورى – تحقيق / الشيخ زكريا عميران ٥ / ٤٣٨ – ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط أولى ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .

(٢) ينظر فى ذلك : لسان العرب ١١ / ٦٥١ ، وأساس البلاغة ٢ / ٤٣٦ ، والصحاح ٦ / ١٠٦ ، ومعجم مقاييس اللغة ٥ / ٣٣٤ .

(٣) ينظر : مسند الإمام أحمد – تحقيق / شعيب الأرنؤوط وآخرون ١٢ / ٤٤٩ ، حديث برقم ٧٤٧٩ – ط مؤسسة الرسالة – ط ثانية ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م ، وينظر : مشارق الأنوار على صحاح الآثار للقاضى عياض ٢ / ٢٥ – ط المكتبة العتيقة ودار التراث .

(٤) ينظر : مفاتيح الغيب للرازى ٢٥ / ١٥٩ .

الوجوه أصلاً ، وقوله كلما أرادوا أن يخرجوا منها : استئناف لبيان كيفية كون النار مأواهم يروى أنهم يضربهم لهب النار فيرتفعون إلى طبقاتها حتى إذا اقتربوا من بابها وأرادوا أن يخرجوا منها فيضربهم اللهب فيهوون إلى قعرها ، وهكذا يفعل بهم أبداً ، وقوله : أعيدوا فيها : عبارة عن خلودهم فيها ، وأنهم مستقرون فيها ، وإنما الإعادة من بعض طبقاتها إلى بعض ، قال الشهاب الآلوسى " وقيل الكلام على ظاهره إلا أن فيه حذفاً أى كلما أرادوا أن يخرجوا منها فخرجوا من معظمها أعيدوا فيها ، ويشير إلى أن الخروج من معظمها قوله تعالى " فيها دون إليها "[1] وعلى أى وجه " فهذا يدل على أنه يزاد فى عذابهم بأن يخيل إليهم ما يظنون به القدرة على الخروج منها كما كانوا يخرجون بفسوقهم عن محيط الأدلة من دائرة الطاعات إلى بيداء المعاصى والزلات ، فيعالجون الخروج فإذا ظنوا أنه تيسر لهم وهم بعد فى غمراتها أعيدوا فيها بأيسر أمر وأسهله ، ولا يزال هذا دأبهم أبداً "[2] وفى بناء الفعل للمجهول إشارة إلى الاهتمام بالفعل دون النظر إلى من وقع منه الفعل ، وأن إعادتهم فى النار أمر حتمى واقع بقطع النظر عن وقوعه من معين وظاهر أن الإعادة إنما تكون بأمر الله تعالى ، وقيل لهم ، وكذلك الحال فى بناء هذا القول للمجهول إذ القائل لا يخلوا أن يكون الله تعالى أو الملائكة بأمر الله تعالى وفى هذا القول لهم حال كونهم قد صاروا فى النار من الإغاظة والإهانة والتقريع ما لا يخفى ، والأمر بذوق العذاب للإهانة وهو من باب الاستعارة فى فذوقوا استعارة تبعية تخيلية ، وفى العذاب استعارة مكنية حيث شبه العذاب بشئ يدرك بحاسة الأكل والذوق تصويراً له بصورة ما يذاق ، وأثبت له الذوق تخيلاً وهو قرينة المكنية قال البقاعى " ولما وصف عذابهم فى النار كان أحق بالوصف عند بيان سبب الإهانة بالأمر بالذوق مع أنه أحق من حيث كونه مضافاً محدثاً عنه فقال : الذى كنتم به أى كوناً هو لكم كالجبلات ، وأشار إلى أن تكذيبهم

---

(١) ينظر : روح المعانى ٢١ / ١٣٣ ، ١٣٤ .

(٢) ينظر : نظم الدرر ٦ / ٦٠ .

به يتلاشى عنده كل تكذيب فكأنه مختص فقال به تكذبون فإن الإعادة بعد معالجة الخروج أمكن من التصديق باعتبار التجدد فى كل آن "[١] وفى التعبير بالمضارع " تكذبون " ما يدل على تجدد تكذيبهم واستمراره مع تواطئهم جميعاً ، وفى ذكر "النار" خروج على مقتضى الظاهر ؛ لأن النار قد سبق ذكرها فى قوله " فمأواهم النار " فكان المقتضى أن يعاد ذكرها مضمراً ولكن لما كان سياق الآية التهديد والتخويف كان الذكر أولى وأوفى بهذا الأمر من الإضمار ، " وقيل الجملة حكاية لما يقال لهم يومئذ فناسب أن يحكى كما قيل لهم ، وليس فيما يقال لهم تقدم ذكر النار "[٢] ذلك هو مصير الفاسقين فى الآخرة ، وليسوا مع هذا متروكين إلى ذلك الموعد ، فالله يتوعدهم بالعذاب فى هذه الدنيا قبل عذاب الآخرة ، ولنذيقنهم من العذاب الأدنى .. لكن ظلال الرحمة تتراءى من وراء هذا العذاب الأدنى ، فالله سبحانه وتعالى لا يحب أن يعذب عباده إذا لم يستحقوا العذاب بعملهم ، وإذا لم يصروا على موجبات العذاب فهو يوعدهم بأن يأخذهم بالعذاب فى الأرض لعلهم يرجعون وتستيقظ فطرتهم ويردهم ألم العذاب إلى الصواب ، والله أعلى وأعلم .

---

(١) ينظر : نظم الدرر ٦ / ٦٠ .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ٢١ / ١٦٤ .

المبحث السادس

أما فى سياق الحديث عن الأمم السابقة

سياق الآيات :

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وثَمُودَ ، إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ومِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلاَئِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ، فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا ولَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وهُمْ لا يُنصَرُونَ ، وأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا العَمَى عَلَى الهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ العَذَابِ الهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (١) .

سبب نزول الآيات :

ورد فى سبب نزول هذه الآيات أن قريشاً اجتمعت للنبى ﷺ فقالوا : انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذى فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا وعاب ديننا فليكلمه ولينظر ما يرد عليه قالوا ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة فأتاه فقال يا محمد أنت خير أم عبد الله ؟ فسكت رسول الله ﷺ ثم قال أنت خير أم عبد المطلب ؟ فسكت رسول الله ﷺ قال فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التى عبت ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك لقد عبت آلهتنا وفرقت جماعتنا إن كان إنما بك الحاجة جمعنا حتى تكون أغنى قريش رجلاً وإن كان إنما بك الباءة فاختر أى نساء قريش شئت فتزوجت عشراً قال له رسول الله أفرغت ؟ قال : نعم ، فقال رسول الله ﷺ " بسم الله الرحمن الرحيم حم تتريل من الرحمن الرحيم حتى بلغ فإن أعرضوا ... فقال عتبة حسبك حسبك ما عندك غير هذا

---

(١) سورة فصلت : الآيات رقم ١٣ – ١٧ .

؟ قال : لا فرجع إلى قريش فقالوا ما وراءك ؟ فقص عليهم ما حدث فنزلت " [١] .

بين يدى السياق :

الآيات تتحدث عن موقف أهل مكة تجاه الإيمان برسالة النبى ﷺ ويسلك معهم مسلك الترغيب والترهيب من خلال جولة فى وقائع الزمن الغابر ، ويعرض فيما يعرض لقصتى عاد وثمود وما تناهى من أمرهم فى الاستكبار والعتو وكيف واجهوا رسلهم بالإنكار والإعراض عن آيات الحق البينات ، وذكر ما حل بهم جزاء تكذيبهم وإعراضهم ، وأن الجزاء لا يتخلف عمن كذب وطغى ، وهكذا يكون حال المستكبرين .

قوله تعالى : فإن أعرضوا : التفات خرج من ضمير الخطاب فى قوله قل أئنكم لتكفرون – إلى ضمير الغيبة إعراضاً عن خطابهم إذ كانوا قد ذكروا بما يقتضى إقبالهم وإيمانهم من الحجج الدالة على الوحدانية والقدرة الباهرة ومعنى الإنذار : التخويف وهو هنا تخويف بتوقيع عقاب مثل عقاب الذين شابهوهم فى الإعراض خشية إن يحل بهم ما حل بأولئك ، وصيغة الماضى – أنذرتكم – للدلالة على تحقق الإنذار المنبئ عن تحقيق المنذر به ، والصاعقة : العذاب الهائل الشديد الوقع قال البغوى وابن الجوزى : " الصاعقة المهلكة من كل شئ "[٢] وخص بالذكر من الأمم المهلكة عاداً [٣]

---

(١) ينظر فى ذلك : غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٦ / ٥٢ ، وينظر : المستدرك على الصحيحين للحاكم تحقيق مصطفى عبد القادر عطا ٢ / ٢٧٨ حديث برقم ٣٠٠٢ – ط دار الكتب العلمية – بيروت – ط أولى ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م ، وينظر : مسند أبى يعلى ٣ / ٢٤٩ حديث رقم ١٨١٨ ، وينظر : المصنف فى الأحاديث والآثار لأبى بكر بن أبى شيبة تحقيق كمال يوسف الحوت ٧ / ٣٣٠ – ط مكتبة الرشد بالرياض – ط أولى ١٤٠٩ هـ ، وينظر : مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمى ٥ / ٤٣٥ – ط دار الفكر – بيروت – ط أولى ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .

(٢) ينظر : نظم الدرر ٦ / ٥٥٩ ، وينظر : تفسير البغوى ١٧ / ١٦٦ ، وينظر : زاد المسير ٧ / ٢٤٧ .

(٣) عاد هم قوم هود عليه السلام وهم أمة عظيمة من العرب البائدة وعاد هو عوص بن إرم بن سام بن نوح ... وأريد به هنا القبيلة وكانت منازلهم ببلاد الشَّحر من أرض اليمن وحضرموت وعمان والأحقاف =

وثمود [١] لعلم قريش بحالهما ولوقوعهم على بلادهم فى اليمن وفى الحجر "[٢] وبدأ بقصة عاد لأنها أقدم زماناً ، وإذ ظرف للماضى ، والمعنى مثل صاعقتهم حين جاءتهم الرسل وضمير جاءتهم عائد إلى عاد وثمود باعتبار عدد كل قبيلة منهما ، وجمع الرسل هنا من باب إطلاق صيغة الجمع على الاثنين والقرينة واضحة وقوله من بين أيديهم ومن خلفهم قال صاحب الكشاف " فإن قلت الرسل الذين من قبلهم ومن بعدهم كيف يوصفون بأنهم جاءوهم ، وكيف يخاطبونهم بقولهم : إنا بما أرسلتم به كافرون ؟ قلت قد جاءهم هود وصالح داعيين إلى الإيمان بهما وبجميع الرسل ممن جاء من بين أيديهم أى من قبلهم وممن يجئ من خلفهم أى من بعدهم فكأن الرسل جميعاً قد جاءوهم أى أتوهم من كل جانب واجتهدوا بهم وأعملوا فيهم كل حيلة فلم يروا منهم إلا العتو والإعراض "[٣] وهذا تمثيل لحرص رسول كل منهم على هداهم بحيث لا يترك وسيلة يتوسل بها إلى إبلاغهم الدين إلا توسل بها ، وقوله ألا تعبدوا إلا الله تفسير لجملة جاءتهم الرسل لتضمن المجئ معنى الإبلاغ بقرينة كون فاعل المجئ متصفاً

= وهى الرمال التى بين حضرموت وعمان ، وينظر فى ذلك : معجم البلدان لياقوت الحموى – تحقيق د/ فريد عبد العزيز الجندى ١ / ١٤٣ – ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط أولى ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م ، وينظر : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة – د/ عمر رضا كحالة ٢ / ٧٠٠ – ط مؤسسة الرسالة – بيروت – ط خامسة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، وينظر : سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب – أبو الفوز أمين البغدادى ص ٤١ – ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط أولى ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م ، وينظر : الكامل فى التاريخ – عز الدين ابن الأثير – تحقيق / أبى الفداء القاضى ١ / ٦٥ – ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – بدون .

(١) ثمود هم قوم صالح عليه السلام وهم أمة عظيمة من العرب البائدة وهم أبناء ثمود بن جَاثِر بن إرم بن سام بن نوح فيلتقون مع عاد فى إرم ومساكنهم كانت بالحجر بين الحجاز والشام وهو المكان المسمى الآن مدائن صالح ، وينظر فى ذلك : الكامل فى التاريخ ١ / ٦٨ ، ومعجم قبائل العرب ١ / ١٥٢ ، وسبائك الذهب ص ٨٣ .

(٢) ينظر : المحرر الوجيز لابن عطية – تحقيق / عبد السلام عبد الشافى ٥ / ٨ – ط دار الكتب العلمية – لبنان – ط أولى ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م ، وينظر : روح المعانى ٢٤ / ١١٠ .

(٣) ينظر :الكشاف ٤ / ١٩٦ ، ١٩٧ .

بأنهم رسل وفى هذا التفسير ما يوضح السبب من مجئ الرسل إليهم وأن مجيئهم لهدف واحد هو دعوتهم إلى عبادة الله وحده ، وهكذا كل رسول أرسل إلى قومه كان عنوان دعوته هو التوحيد الخالص لله عز وجل وقوله تعالى " لو شاء ربنا لأنزل ملائكة حكاية عنهم بتضمن إبطال رسالة البشر عن الله تعالى ومفعول المشيئة محذوف دل عليه السياق ونكتته البيان بعد الإبهام وفى هذا إيماء إلى تكذيبهم الرسل ولهذا فرعوا عليه قولهم فإنا بما أرسلتم به كافرون أى جاحدون رسالتكم وهو أيضاً كناية من التكذيب وهذا خطاب لهود وصالح ومن دعا من الأنبياء إلى الإيمان وغلب الخطاب على الغيبة " وليس قوله فإنا بما أرسلتم إقراراً بالإرسال بل هو على سبيل التهكم أى بما أرسلتم على زعمكم كما قال فرعون ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾[1] .

بلاغة التفصيل :

بعد هذا العرض القرآنى الذى حكاه القرآن الكريم عن كل قبيلة من هاتين القبيلتين وهو عرض مجمل نوه فيه فقط بعدم قبولهم رسالة رسولهم : ﴿ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً ... ﴾ وهذا وإن كان فيه ما يشير إلى إعراضهم وطغيانهم وكفرهم إلا أنهم يفيده على طريقة الإجمال والاختصار وهذا الأسلوب القرآنى يحفز النفوس المتلقية للبيان الربانى إلى أن تتطلع إلى مفردات هذا الطغيان وتفاصيل هذا العصيان لأنه ما من قصة فى القرآن الكريم إلا وقد أودع الله فيها من العبر والعظات ما لو وقف عليه الناس لانتفعوا به والقرآن إذ يعمد إلى هذا التفهيم يسلك مسلك الإجمال ليشوق النفوس ويشحذ الهمم إلى استلهام العبرة والانتفاع بالموعظة فها هو يجمل أولاً ثم يفصل ثانياً وذلك فى قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ فلما بين الله تعالى كفر عاد وثمود على الإجمال فصل بعد ذلك فذكر خاصية كل واحدة من الطائفتين قال العلامة أبو السعود رحمه الله – " قوله فأما عاد .. شروع فى

---

(١) ينظر : الكشاف ٤ / ١٩٧ ، البحر المحيط ٧ / ٤٦٩ ، روح المعانى ٢٤ / ١١١ ، المحرر الوجيز ٥ / ٨ ، أبو السعود ٨ / ٨ ، وسورة الشعراء الآية رقم ٢٧ .

حكاية ما يخص بكل واحدة من الطائفتين من الجناية والعذاب إثر حكاية ما يعم الكل من الكفر المطلق "[١] وكما تقرر من اشتمال أما على الشرط ودلالتها على التفصيل وما توحى به من الجواب على السؤال المضمن فى الإجمال وما تشير بـه إلى الاهتمام بالكلام كل ذلك يعكس على الجملة المتصدرة بأما مما يجعل فارقاً كبيراً بينها فى المعنى والصياغة وبين الجملة المجردة منها وفى ذلك من المحافظة على الخيط الواصل بين بيان القرآن ومتلقيه فهى وسيلة من وسائل الإقناع والتقرير والتوكيد وقد بدأ بعاد لأنها أقدم وجوداً وأسبق زماناً وفيه من مراعاة الترتيب كما هو الحال فى الإجمال السابق فى قوله مثل صاعقة عاد وثمود ، والاستكبار : للمبالغة فى الكبر أى التعاظم واحتقار الناس فالسين والتاء للمبالغة قال صاحب الكشاف : " فاستكبروا فى الأرض أى تعظموا فيها على أهلها بما لا يستحقون به التعظيم وهو القوة وعظم الإجرام أو استعلوا فى الأرض واستولوا على أهلها بغير استحقاق للولاية "[٢] والتعريف فى الأرض للعهد أى أرضهم المعهودة ، وإنما ذكر من مساوئهم الاستكبار ؛ لأن تكبرهم هو الذى صرفهم عن اتباع رسولهم وعن توقع عقاب الله ، ولما كان الكبر قد يكون بالحق كما على من خالف أمر الله بغير الحق أى الأمر الذى يطابق الواقع وهو إنكار رسالة البشر ، فإن الواقع إرسالهم قال تعالى " بغير الحق " يعنى أنه لا وجه لهذا الاستكبار ولا مبرر لقبوله ، وفى هذا القيد – بغير الحق – زيادة تشنيع عليهم ، وهم اغتروا بقوة أجسامهم وعزة أمتهم ، وادعوا أنهم لا يغلبهم أحد ، وهو معنى قوله حكاية عنهم : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ وقولهم هذا هو سبب استكبارهم لأنه أورثهم الاستخفاف بمن عداهم فلما جاءهم هود عليه السلام بإنكار ما هم عليه من الشرك والطغيان عظم عليهم ذلك لأنهم اعتادوا العجب بأنفسهم وأحوالهم فكذبوا رسولهم ، فلما كان اغترارهم بقوتهم باعثهم على الكفر كان قولهم ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ دليلا

---

(١) ينظر : تفسير أبو السعود ٨ / ٨ .

(٢) ينظر : الكشاف ٤ / ١٩٨ .

عليه خص بالذكر وإنما عطفت بالواو مع أنه كالبيان لقوله فاستكبروا فى الأرض بغير الحق إشارة إلى استقلاله بكونه موجب الإنكار عليهم ؛ لأن قولهم ذلك هو بمفرده منكر من القول فذكر بالعطف على فعل استكبروا ، لأن شأن العطف أن يقتضى المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه ويعلم أنه باعثهم على الاستكبار بالسياق ، ولما ذكر هذا الذنب العظيم وهو الاستكبار ، وكان فعلاً قلبياً ذكر ما ظهر عليهم من الفعل اللسانى المعبر عما فى القلب ﴿ قَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ والاستفهام خرج عن معناه الحقيقى إلى معنى بلاغى هو النفى أى لا أحد أشد منا قوة ويضم إلى معنى النفى معنى العتو والغطرسة ولا يخفى ما فى الفعلين " استكبروا" ، " وقالوا " من تحقق الوقوع الذى استوجب لهم العقاب قال الإمام البقاعى " ولما كان التقدير أن يقال إنكاراً عليهم ألم يروا أن الله لو شاء لجعلهم كغيرهم عطف عليه قوله : أو لم يروا أى يعلموا علما هو كالمشاهدة لأنه غريزة فى الفطرة الأولى فهو علم ضرورى أن الله أى المحيط بكل شئ قدرة وعلما الذى خلقهم ولم يكونوا شيئاً هو أشد منهم قوة ، ومن علم أن غيره أقوى منه وكان عاقلاً انقاد له فيما ينفعه ولا يضره واجتماع قوتهم التى هى شدة البنية وقوته سبحانه التى هى كمال القدرة – وهى صفة قائمة بذاته سبحانه إنما هو من الآثار الناشئة عن القوة فلذلك جمعا بأشد "[1] وجملة : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَذِي خَلَقَهُمْ ﴾ جملة معترضة والواو اعتراضية والرؤية علمية والاستفهام إنكارى والمعنى إنكار عدم علمهم بأن الله أشد منهم قوة حيث أعرضوا عن رسول ربهم وعن إنذاره إياهم إعراض من لا يكترث بعظمة الله تعالى لأنهم لو حسبوا لذلك حسابه لتوقعوا عذابه فلأقبلوا على دلائل صدق رسوله وإجراء وصف الذى خلقهم على اسم الجلالة دون التعرض لخلق السموات والأرض لما فى الصلة من الإيماء إلى وجه الإنكار عليهم لجهلهم بأن الله أقوى منهم فإن كونهم مخلوقين معلوم لهم بالضرورة فكان العلم

---

(١) ينظر : نظم الدرر ٦ / ٥٦١ .

به كافياً فى الدلالة على أنه أشد منهم قوة ، وأنه حقيق بأن يحسبوا لغضبه حسابه فينظروا فى أدلة صدق رسولهم وفيه كما ذكر أبو السعود – ضرب من التهكم بهم"[١] وضمير " هو " فى قوله هو أشد منهم قوة ضمير فصل وهو مفيد تقوية الحكم بمعنى وضوحه وإذا كان ذلك الحكم محققاً كان عدم علمهم بمقتضاه أشنع وعذرهم فى جهله منتفياً ، والقوة حقيقتها حالة فى الجسم يتأتى بها أن يعمل الأعمال الشاقة وتطلق على لازم ذلك من القدرة وسائل الأعمال وقوله تعالى : ﴿ وكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ عطف على قوله فاستكبروا ولفظة " كان " كما يقول صاحب [٢] البحر فى كثير من الاستعمال تشعر بالمداومة ، قوله : يجحدون أى ينكرونها يعنى الآيات المنزلة على الرسل وهم يعرفون حقيقتها " وأصل الجحد : الإنكار مع العلم يقال جحده حقه وبحقه جحداً وجحوداً " [٣] وقد دل فعل – كانوا – على أن التكذيب بالآيات متأصل فيهم ، ودلت صيغة المضارع فى قوله " يجحدون " على أن الجحد متكرر فيهم متجدد ، وقد ترتب على ذلك وصف عقابهم بأن الله تعالى أرسل عليهم ريحاً فأشارت الفاء – فأرسلنا – إلى أن عقابهم كان مسببا على حالة كفرهم بصفتها فإن باعث كفرهم كان اغترارهم بقوتهم فأهلكهم الله بما لا يترقب الناس الهلاك به " فإن الناس يقولون للشئ الذى لا يؤبه به : هو ريح ليريهم أن الله شديدة القوة وأنه يضع القوة فى الشئ الهين مثل الريح ليكون عذاباً وخزياً أى تحقيراً كما قال لنذقيهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا وأى خزى أشد من أن تتراماهم الريح فى الجو كالريش وأن تلقيهم هلكى على التراب عن بكرة أبيهم فيشاهدهم المارون بديارهم جثثاً صرعى قد

---

(١) ينظر : تفسير أبو السعود ٨ / ٨ ، وروح المعانى ٢٤ / ١١٢ ، والتحرير والتنوير ٢٥ / ٢٩ ، وفتح القدير ٤ / ٧٢٦ .

(٢) البحر المحيط ٧ / ٤٦٩ .

(٣) ينظر فى ذلك : كتاب العين ٣ / ٧٢ ، ولسان العرب ٣ / ١٠٦ ، وينظر : الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى ١ / ١٥٧ .

تقلصت جلودهم وبليت أجسامهم – ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[١] وقوله تعالى فأرسلنا فى دلالة الماضى على التحقق ما يشير إلى صدق المبلغ عن الله قال الإمام البقاعى " فأرسلنا بسبب ذلك على ما لنا من العظمة ودل على صغارهم وحقارتهم بأداة الاستعلاء فقال عليهم ، وزاد فى تحقيرهم بأن أخبر أنه أهلكهم لأجل ما تعززوا به من قوة أبدانهم ووثاقة خلقهم بما هو من ألطف الأشياء جسماً وهو الهواء فقال : " ربما " أى عظيمة"[٢] وفهم عظمة الريح من تنكيرها ، والريح تموّج فى الهواء يحدث من تعاكس الحرارة والبرودة وتنتقل موجاته كما تنتقل أمواج البحر ، والريح الذى أصاب عاداً هو ريح الدّبور وهو الذى يهبّ من جهة دبر الكعبة قال النبى ﷺ : " نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور"[٣] والصَّرصر : الريح العاصفة التى يكون لها صرصرة أى دويّ فى هبوبها من شدة سرعة تنقلها ، وقيل هى الباردة ، وتضعيف عينه للمبالغة فى شدتها بين أفراد نوعها ... وأصله صَرَّ أى صاح ، وهو وصف لا يؤنث لفظه لأنه لا يجرى إلا على الريح وهى مقدرة التأنيث "[٤] ونحسات : صفة لأيام جمع بألف وتاء لأنه جمع صفة لما لا يعقل ونحسات : جمع نحسة من نحس نحسا نقيض سعد سعداً ، ومعنى وصف الأيام بالنحسات أنها أيام سوء شديد أصابهم وهو عذاب الريح وهى ثمانية أيام كما جاء فى قوله تعالى ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً ﴾[٥] .

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير والآية من سورة الحاقة رقم ٧ .

(٢) ينظر : نظم الدرر ٦ / ٥٦١ .

(٣) أخرجه البخارى عن ابن عباس – باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : نصرت بالصبا ٢ / ٤٥٠ حديث رقم ١٠٣٥ ، وصحيح مسلم ٢ / ٦١٧ – حديث رقم ٩٠٠ – تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقى – ط دار إحياء التراث العربى – بيروت ، ومسند الإمام أحمد ٣ / ٤٦١ – حديث رقم ٢٠١٣ ، وسنن البيهقى الكبرى ٣ / ٣٦٤ – حديث رقم ٦٢٧٦ .

(٤) ينظر فى ذلك : لسان العرب ٤ / ٤٥٠ ، وأساس البلاغة ٢ / ١٣ ، والمحيط لابن عباد ٨ / ٨٢ ، والكليات ١ / ٨٩٤ .

(٥) سورة الحاقة : الآية رقم ٧ .

فالمراد أن تلك الأيام بخصوصها كانت نحسًا ، وأن نحسها عليهم دون غيرهم من أهل الأرض ؛ لأن عاداً هم المقصودون بالعذاب ، وليس المراد أن تلك الأيام من كل عام هى أيام نحس على البشر ؛ لأن ذلك لا يستقيم لاقتضائه أن تكون جميع الأمم حل بها سوء فى تلك الأيام ، ووصفت تلك اليام بأنها نحسات ؛ لأنها لم يحدث فيها إلا السوء لهم من إصابة آلام الهشم المحقق إفضاؤه إلى الموت ، واللام فى لنذيقهم للتعليل وهى متعلقة بأرسلنا ، والإذاقة تخييل المكنية شبه العذاب بطعام هيئ لهم على وجه التهكم والإذاقة تخييل من ملائمات الطعام المشبه به ، والخزى : الذل وإضافة عذاب إلى الخزى من إضافة الموصوف إلى الصفة بدليل مقابلته بقوله : ولعذاب الآخرة أخزى أى أشد إخزاء من إخزاء عذاب الدنيا ، وذلك باعتبار أن الخزى وصف للعذاب من باب الوصف بالمصدر أو اسم المصدر للمبالغة فى كون ذلك العذاب مخزياً للذى يعذب به ، ومعنى كون العذاب مخزياً أنه سبب خزى فوصف العذاب بأنه خزى بمعنى مخز من باب المجاز العقلى[١] ، ووصف العذاب بالخزى أبلغ من وصفهم به ألا ترى إلى البون بين قوليك : هو شاعر ، وله شعر شاعر "[٢] وهو يدل – أيضاً – كما ذكر الآلوسى أن ذل الكافر زاد حتى اتصف به عذابه "[٣] قال صاحب التحرير : " فحصلت مبالغتان فى قوله عذاب الخزى : مبالغة الوصف بالمصدر ، ومبالغة إضافة الموصوف إلى الصفة وجملة : ولعذاب الآخرة أخزى احتراس[٤] لئلا يحسب السامعون أن حظ أولئك من العقاب هو عذاب الإهلاك بالريح فعطف عليه الإخبار بأن عذاب الآخرة

---

(١) ينظر : الإيضاح ١ / ٩٠ تحقيق خفاجى ، وبغية الإيضاح ١ / ٥١ ، وينظر : خصائص التراكيب ١ / ٧٥ ، وينظر : البلاغة العربية للميدانى ٢ / ٢٢٣ .

(٢) ينظر : الكشاف ٤ / ١٩٩ .

(٣) ينظر : روح المعانى ٢٤ / ١١٣ .

(٤) ينظر فى ذلك : الإيضاح ١ / ٣١٠ ، شروح التلخيص ٣ / ٢٣٢ ، وينظر : البلاغة العالية للشيخ عبد المتعال الصعيدى – تقديم د / عبد القادر حسين ص ١٢٩ – ط مكتبة الآداب – ط ثانية ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م ، وينظر : الإطناب أنواعه وقيمته البلاغية – د/ محمود شاكر القطان ص ٤٩ ، وينظر : الإتقان ٢ / ٧٤ .

أخزى أى لهم ولكل من عذب عذاباً فى الدنيا لغضب الله عليه "[١] ولما انتفت مدافعتهم عن أنفسهم نفى دفع غيرهم فقال " وهم " أى أصابهم هذا العذاب وسيصيبهم عذاب الآخرة ، والحال أنهم لا ينصرون أى لا يوجد ، ولا يتجدد لهم نصر أبداً بوجه من الوجوه "[٢] وجملة : ﴿ وهُمْ لا يُنصَرُونَ ﴾ تذييل أى لا ينصرهم من لا يدافع العذاب عنهم ولا من يشفع لهم ولا من يخرجهم منه بعد مهلة هذا .... ولم يكتمل التفصيل عند هذا الحد بل عطف عليه البيان القرآنى ما كان من قصة ثمود زيادة فى البيان وإكمالاً للتفصيل قال : ﴿ وأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ عطفاً على قوله : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ .... ﴾ فلما أنهى أمر صاعقة عاد شرع فى بيان صاعقة ثمود ، ولما كان أمر الأمتين واحداً فى عدم قبول الإرشاد من جانب الله تعالى كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لأَنزَلَ مَلائِكَةً ﴾ كان الإخبار عن ثمود بأن الله هداهم مقتضياً أنه هدى عاداً مثل ما هدى ثمود ، وأن عاداً استحبوا العمى على الهدى مثل ما استحبت ثمود والمعنى وأما ثمود فهديناهم هداية إرشاد برسولنا إليهم وتأييده بآية الناقة التى أخرجها لهم من الأرض " فالمراد بالهداية هنا الإرشاد التكليفى .. واستحبوا العمى معناها أحبوا فالسين والتاء للمبالغة مثلها فى قوله فاستكبروا فى الأرض أى كان العمى محبوباً لهم "[٣] وقوله : فهديناهم أى بينا لهم طريق الهدى من أنا قادرون على البعث وعلى كل شئ فلا شريك لنا فاستحبوا العمى على الهدى أى أوجدوا من الأفعال والأقوال ما يدل على حب ذلك وعلى حب طلبه فعموا فضلوا قال الإمام القشيرى " وقيل إنهم فى الابتداء آمنوا وصدقوا ثم ارتدوا وكذبوا فأجراهم مجرى إخوانهم فى الاستئصال "[٤] " والعمى هنا مستعار للضلال فى الرأى أى اختاروا الضلال لكسبهم وضمن استحبوا معنى فضلوا وهيأ لهذا التضمين

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير ٢٥ / ٣٣ .

(٢) ينظر : نظم الدرر ٦ / ٥٦٢ .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير ٢٥ / ٣٣ .

(٤) ينظر : تفسير القشيرى ٧ / ١٣٢ ، ونظم الدرر ٦ / ٥٦٢ .

اقترانه بالسين والتاء للمبالغة لأن المبالغة فى المحبة تستلزم التفضيل على بقية المحبوبات فلذلك عدى استحبوا بحرف " على " أى رجَّحوا باختيارهم وتعليق " على الهدى " بفعل " استحبوا " لتضمينه معنى فضلوا وآثروا "[١] وقوله : ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ العَذَابِ الهُونِ﴾ فرع على قوله فاستحبوا قوله فأخذتهم وكان العقاب مناسباً للجرم لأنهم استحبوا الضلال الذى هو مثل العمى فمن يستحبه فشأنه أن يحب العمى فكان جزاؤهم الصاعقة لأنها تعمى أبصارهم فى حين تهلكهم والمعنى فأخذتهم صاعقة العذاب وهى " داهية العذاب وقارعة العذاب كما ذكر صاحب الكشاف[٢] والأخذ مستعار للإصابة المهلكة لأنها اتصال بالمهلك يزيله من الحياة فكأنه أخذ باليد والفاء سببية أى بسبب ذلك أخذ قسر وهوان والصاعقة : " الصيحة التى تنشأ فى كهربائية السحاب الحامل للماء فتنقدح منها نار تهلك ما تصيبه "[٣] وإضافة صاعقة إلى العذاب للدلالة عى أنها صاعقة تعرف بطريق الإضافة إذ لا يعرف بها الإ ما تضاف إليه أى صاعقة خارقة لمعتاد الصواعق فهى صاعقة مسخرة من الله لعذاب ثمود ووصف بالهون كما وصف العذاب بالخزى فى قوله : ﴿ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الخِزْيِ ﴾ أى : العذاب الذى هو سبب الهون ، والهون : الهوان وهو الذل ووجه كونه هواناً أنه إهلاك فيه مذلة قال صاحب الكشاف "والهون : الهوان وصف به العذاب مبالغة أو أبدل منه "[٤] وذكر البقاعى أنه " أبلغ فى وصف العذاب بجعله نفس الهون فقال الهون أى ذى الهون قامت ضمته مقام ما فى الهون من صيغة فعلم أن المراد المهين المخزى "[٥] وقوله : ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أى من اختيار الضلالة بإعراضهم عن دعوة رسولهم وعن دلالة آياته ويعلم من قوله فى شأن عاد ولعذاب الآخرة أخزى أن لثمود عذابا فى الآخرة ؛ لأن

---

(١) ينظر : التحرير والتنوير ٢٥ / ٣٣ .

(٢) الكشاف ٤ / ٢٠٠ ، وينظر : تفسير أبو السعود ٨ / ٩ .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير ٢٥ / ٣٤ .

(٤) ينظر : الكشاف ٤ / ٢٠٠ ، وتفسير أبو السعود ٨ / ٩ ، والبحر المحيط ٧ / ٤٧١ .

(٥) ينظر : نظم الدرر ٦ / ٥٦٢ .

الأمتين تماثلتا فى الكفر فلم يذكر ذلك هنا اكتفاء بذكره فى تقدم وهذا محسن الاكتفاء " وهذا نوع من أنواع الحذف عرفه البلاغيون بأنه " أن يقتضى المقام ذكر شيئين بينهما تلازم وارتباط فيكتفى بأحدهما عن الآخر لنكتة بلاغية ويختص غالباً بالارتباط العطفى وهو محسن يرجع إلى الإيجاز "[1] وقوله تعالى : ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أى : كانوا دائماً يكسبون أى يتجدد تحصيلهم له وعدهم له فائدة فالآية إذاً من الاحتباك ذكر الهداية أولاً دليلاً على حذف الضلال ثانياً ، والعمى ثانياً دليلاً على حذف الإبصار أولاً وسره أنه نسب اليه أشرف فعليه وأسند إليه ما لا يرضاه ذو الروح ، وها قد استوفى البيان القرآنى أركان التفصيل بأما وكان التفصيل لما حل بعاد وثمود من ألوان العذاب تفصيلاً واقعاً موقعه من البلاغة فقد أشار الى استكبار عاد وعتوهم ومدى ما هم فيه من غطرسة وأنكر عليهم ذلك وقرر حقيقة جحدهم لآيات الله والتى كانت سبباً فى إهلاكهم بالريح الصرصر العاتية التى ما تذر من شئ أتت عليه إلا جعلته كالرميم ليس هذا فحسب بل وينتظرهم فى الآخرة العذاب الأشد خزياً من عذاب الدنيا ، ثم يعطف على هذا العرض والتفصيل جزاءً آخر لثمود الذين لم يفطنوا إلى ما حل بقوم عاد فلم يتنبهوا ولم يتعظوا ليس هذا فحسب بل آثروا الضلالة على الهدى ولم يكونوا أحسن حالاً ممن سبقهم فعاجلهم العذاب المخزى عذاب الهون بسبب اختيارهم على اختيار الله تعالى لهم ، وهكذا تطوف الآيات بجولة فى مصارع الغابرين بعد تلك الجولة فى ملكوت السموات والأرض جولة تهز القلوب المستكبرة برؤية مصارع المستكبرين ، والله أعلى وأعلم .

---

(١) ينظر فى ذلك : المثل السائر ١ / ١٧٨ ، والبرهان للزركشى ٣ / ١١٨ ، جواهر البلاغة ص ٣٣٠ ، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ٢ / ٤٨ .

المبحث السابع

أما فى مقام الحديث عن أحوال المحتضرين واختلاف منازلهم بعد الممات :

سياق الآيات :

﴿ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ، ونَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ولَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ، فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ، تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ، فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ، فَرَوْحٌ ورَيْحَانٌ وجَنَّةُ نَعِيمٍ ، وأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ، فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ، وأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ، فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ، وتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ، إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ، فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾[1] .

بين يدى السياق :

تتحدث الآيات عن طبقات الخلق ساعة الإحتضار وتبين درجاتهم ومنازلهم وتصف آخر مشهد من مشاهد الحياة الدنيا ، وكيف يقف الإنسان أمامه عاجزاً لا يملك حياله شيئا وهو أفقر ما يكون إلى رحمة الله وعفوه وتتعرض الآيات لمنازل الناس فى هذه الساعة العصيبة فالمقربون ناجون فى الدنيا وسابقون منعمون فى الآخرة وأصحاب اليمين فى الدرجة التى تليهم من الفوز والنجاة ، وأما أولئك الضالون المكذبون فلا حظ لهم فى النعيم بل النار وبئس القرار ، وتختتم الآيات بتقرير هذه الحقيقة التى لا شك فى وقوعها وهى أن الذى ابتدأ الخلق وهو وحده الذى سينهيه ويبعثه بعد الموت ، ولهذا فعلى كل مسلم موحد أن يتره الله تبارك وتعالى عما لا يليق به ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴾ : لولا فيه للتحضيض لإظهار عجزهم وإذا ظرفية والخطاب للتحذير والترهيب أى فهلا إذا بلغت النفس أى الروح وقبل نفس الحلقوم وتداعت إلى الخروج قال صاحب الكشف[2] " فاختزل النفس لدلالة

---

(١) سورة الواقعة : الآيات رقم ٨٣ – ٩٦ .

(٢) ينظر : الكشف والبيان للثعلبى ٩ / ٢٢٣ ، واللباب فى علوم الكتاب لابن عادل الحنبلى تحقيق عادل عبد الموجود وعلى معوض ١٨ / ٤٤٣ – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط أولى ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م ، وينظر : فتح القدير للشوكانى ٥ / ٢٢٩ .

الكلام عليه قول الشاعر :

أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى ∴ إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر[١]

وأنتم حينئذ أيها الحاضرون حول صاحبها تنظرون إلى ما هو من الغمرات ونحن أقرب إليه علماً وقدرة وتصرفاً منكم حيث لا تعرفون من حاله إلا ما تشاهدونه من آثار الشدة من غير أن تقفوا على كنهها وكيفيتها وأسبابها ولا أن تقدروا على دفع أدنى شئ منها ونحن المتولون لتفاصيل أحواله بعلمنا وقدرتنا أو بملائكة الموت ولكن لا تبصرون : ولا تدركون ذلك لجهلكم بشئوننا قال صاحب الكشاف " ترتيب الآية فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مدينين فلولا الثانية مكررة للتوكيد والضمير فى ترجعونها للنفس وهى الروح وفى أقرب إليه للمحتضر"[٢]و" أل " فى الحلقوم للعهد الجنسى ، وجملة ﴿ وأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ حال من ضمير بلغت " وفائدة هذه الحال تحقيق أن الله صرفهم عن محاولة إرجاعها مع شدة أسفهم لموت الأعزة ، وجملة : ﴿ ونَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ... ﴾ احتراس لبيان أن ثمة حضوراً أقرب من حضورهم عند المحتضر وهو حضور التصريف لأحواله الباطنة وقرب الله : قرب وعلم وقدرة"[٣] وجملة : ﴿ ولَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴾ معترضة بين جملة : ﴿ ونَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ وجملة : ﴿ فَلَوْلا إن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ وجملة : إن كنتم غير مدينين معترضة أو حال من الواو فى " ترجعونها " وجواب شرط " إن " محذوف دل عليه فعل ترجعونها قال ابن عطية " وقوله ترجعونها سد مسد الأجوبة والبيانات التى تقتضيها

---

(١) البيت لحاتم الطائى ينظر ديوانه ص ٥٠ – ط بيروت ، وينظر : الأغانى لأبى الفرج ١٧ / ٣٨٣ ، وينظر : نهاية الأرب فى فنون الأدب لشهاب الدين النويرى تحقيق د/ مفيد قميحة وجماعة ٣ / ٦٠ – ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط أولى ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٤ م ، وينظر : زهر الآداب وثمر الألباب للحصرى القيروانى تحقيق د / يوسف على طويل ٢ / ١٦٤ – ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط أولى ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .

(٢) ينظر : الكشاف ٤ / ٤٦٨ .

(٣) ينظر : التحرير والتنوير ١٤ / ٤٤٦ .

التحضيضات ، و " إذا " من قوله فلولا إذا بلغت ، و" إن " المتكررة وحمل بعض القول بعضاً إيجاز واقتضابات "[١] ومعنى الاستدراك فى ﴿ ولَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴾ راجع إلى قوله : ﴿ ونَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾ لرفع توهم قائل كيف يكون أقرب إلى المحتضر من العواد الحافين حوله وهم يرون شيئاً غيرهم يدفع ذلك بأنهم محجوبون عن رؤية الله تعالى ، ومعنى : مدينين : " مجازين على أعمالكم وعلى هذا المعنى حمله جمهور المتقدمين من المفسرين ... وعليه جمهور المفسرين من المتأخرين على الإجمال[٢] وأسند فعل ﴿ إن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ إلى المخاطبين بضمير المخاطبين دون أن يقول إن كان الناس غير مدينين ؛ لأن المخاطبين هم الذين لأجل إنكارهم البعث سيق هذا الكلام ، والمعنى لو كنتم أنتم وكان الناس غير مدينين لما أخرجت الأرواح من الأجساد إذ لا فائدة تحصل من تفريق ذينك الإلفين لولا غرض سام ، وهو وضع كل روح فيما يليق بها من عالم الخلود جزاء على الأعمال ولذلك أوثر لفظ مدينين دون أن يقال غير مبعوثين أو غير معادين وإن كان لا يلزم من نفى الإدانة نفى البعث فإنه يجوز أن يكون بعث بلا جزاء ولكن ذلك لا يدعى لأنه عبث ، فقوله إن كنت غير مدينين إيماء إلى أن الغرض من سوق هذا الدليل إبطال إنكارهم البعث الذى هو لحكمة الجزاء ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾[٣] .

بلاغة التفصيل :

وهكذا نجد هذه الآيات الكريمة تقيم أوضح الأدلة وأكثرها تأثيراً فى النفوس على كمال قدرة الله تعالى وعلى نفاد مشيئته وإرادته فهى تتحدى البشر جميعاً أن يعيدوا الروح إلى أحب الناس إليهم وهم واقفون حوله وقفة الحائر المستسلم العاجز عن فعل أى شئ من شأنه أن يدفع عن هذا المحتضر ما فيه من كرب أو أن يؤخر

---

(١) ينظر : المحرر الوجيز ٥ / ٢٣٠ .

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ١٤ / ٤٤٧ .

(٣) سورة المؤمنون : الآية رقم ١١٥ .

انتزاع روحه من جسده ولو لزمن قليل ثم تمضى السورة الكريمة بعد ذلك فى بيان مصير هذه الروح التى توشك أن تستدبر الحياة الفانية وتستقبل الحياة الباقية ، عند هذه النقطة تكثر التساؤلات التى لا تكاد تفارق نفس الحاضرين يا ترى ما الذى ينتظر هذه الروح بعد توسدها فى التراب أنعيم أم غير ذلك ؟ وتتمنى لو أجيبت على ذلك فور خروج الروح ، ولكن البيان القرآنى بقدر ما يشوق النفوس يترك الإجابة عامة تستلمها النفوس من واقع سيرة الأحياء فى الحياة ومن خلال سلوكهم فيها ويأتى التفصيل والبيان ليبين درجات الناس ومنازلهم بعد مفارقتهم الحياة ، وأنهم أصناف ، ولكل صنف منهم منزلته ومكانته ، ويأتى التفصيل بـ " بأما " والتى وضعت لتفصيل المجمل الذى يقتضى استشراف السامع إلى تفصيله ويجيب على التساؤل الذى يفرضه الإجمال على النفوس وهو إن كنت تريد معرفة تفصيل هذا الأمر وهو مراتب المحتضرين ومنازلهم فهو كذا وكذا وإذا تبدت أما فى جملة التفصيل أضافت عليها توكيداً وتقريراً ودل تصدرها على مزيد الاهتمام من المتكلم بكلامه وعباراته وفى هذا ما لا يوجد فى الجملة العارية عنه والتفصيل فى قوله فأما إن كان من المقربين قال صاحب الكشاف " فأما إن كان المتوفى من المقربين من السابقين من الأزواج الثلاثة المذكورة فى أول السورة "[1] وهذا شروع فى بيان حال المتوفى من بعد الممات إثر بيان حاله عند الوفاة ، وقد عبر عنهم بأجلّ أوصافهم – المقربين – وذكر لهم جزاءً لم يذكر لهم فيما تقدم فى بداية الصورة ليضم إلى ما أعدلهم على طريقة القرآن فى توزيع القصة " والروح بفتح الراء فى قراءة الجمهور : هو الراحة أى فروح له أى هو فى راحة ونعيم[2] وما أجمل أن ينعم المقرب بالراحة ويعنى الاستراحة والقرب من ذى الجلال وتلك بأعلى المنازل لأن أصحابها سابقون ، ولا سبق أسبق من هذا ، ليس هذا

---

(١) ينظر : الكشاف ٤ / ٤٦٨ .

(٢) ينظر : الكشاف ٤ / ٤٦٨ ، وتفسير أبو السعود ٨ / ٢٠١ ، والتحرير والتنوير ١٤ / ٤٤٨ .

فحسب بل وريحان وهو – كما ذكر فى الكشاف[١] الرزق وهو " شجر لورقه وقضبانه رائحة ذكية شديدة الخضرة كانت الأمم تزين به مجالس الشراب قال الحريرى " وهو تارة يستبزل الدنان ، وطوراً يستنطق العيدان ، ودفعة يستنشق الريحان[٢] وكانت ملوك العرب تتخذه ، قال النابغة :

رِقاقُ النِعالِ طَيِّبٌ حُجُزاتُهُم ∴ يُحَيّوْنَ بِالريحانِ يَومَ السَباسِبِ[٣]

وإضافة لهذا العطاء جنة نعيم أى زادت تنعم يتعاطون فيها الروح والريحان ، وتخصيص الريحان بالذكر قبل ذكر الجنة التى تحتوى عليه إيماء إلى كرامتهم عند الله ، والقرآن صريح فى وصفه للجنة وما حوت من أزهار وأطيار حسان ، وفى وصفه للنار وما حوت من نكال وألوان وهوان ، وهذه الأوصاف تستقيم مع طباع الناس وتكافئ ما يستحقون من مثوبة أو عقوبة ... ووصف الجنة أو النار بهذه النعوت الواضحة له ناحيتان : الأولى تقرير الحقيقة كما أوجدها الله وذكر الشئ بطبيعته المجردة ، والأخرى غرس هذه الحقائق فى ميادين التعليم والتربية والوعظ والإرشاد لتساعد فطام العصاة عن الرذائل وإغراء الأتقياء بالفضائل ، فالإنسان يعينه على الحق أن يرتقب الخير من فعله ويزجره عن الشر أن يتوقع الدواهى من ارتكابه ، وذلك سر كثرة الترغيب والترهيب فى القرآن "[٤] والإضافة فى قوله فجنة نعيم إضافة لامية أو لأدنى ملابسة ، وهذا إشارة إلى مكان المقربين بحيث يلزم منه أن يكونوا أصحاب نعيم ، وتتمة

---

(١) ينظر : الكشاف ٤ / ٤٦٨ .

(٢) ينظر : مقامات الحريرى تحقيق يوسف بقاعى ١ / ٩٦ المقامة الثانية عشرة (الدمشقية) ط دار الكتاب اللبنانى – بيروت – ط أولى ١٩٨١ م .

(٣) " البيت من قصيدة للنابغة الذبيانى يمدح بها عمرو بن الحارث الغسانى ، وأراد برقة نعالهم أنهم ملوك لا يخصفون نعالهم وبطيب حجزاتهم : عفتهم والسباسب يوم الشعانين ، وهو يوم عيد عند النصارى وكان الممدوح نصرانياً " ينظر : ديوان النابغة الذبيانى ١ / ٣ – ط بيروت ، وينظر : الأغانى ١٥ / ١١٥ ، والبيان والتبيين للجاحظ تحقيق فوزى عطوى ١/ ٤٣٩ – ط دار صعب – بيروت ط أولى ١٩٦٨ م .

(٤) نظرات فى القرآن الكريم – الشيخ محمد الغزالى ص ٨٢ – ط دار النهضة مصر – ط أولى .

التفصيل يعطف قوله : ﴿ وأَمَّا إن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ اليَمِينِ ﴾ على قوله : ﴿ فَأَمَّا إن كَانَ مِنَ المُقَرَّبِينَ ﴾ والمقصود به أيضاً المتوفى ، وقد عبر عنهم بالعنوان السابق إذ لم يذكر لهم فيما سبق وصف واحد ينبئ عن شأنهم سواه كما ذكر للفريقين الآخرين ، وقوله تعالى : ﴿ فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ اليَمِينِ ﴾ إخبار من جهته تعالى بتسليم بعضهم على بعض كما يفصح عنه اللام لا حكاية إنشاء سلام بعضهم على بعض وإلا لقيل عليك والالتفات إلى خطاب كل واحد منهم للتشريف "[١] والمعنى كما ذكر صاحب الكشاف " فسلام لك من أصحاب اليمين أى فسلام لك يا صاحب اليمين من إخوانك من أصحاب اليمين أى يسلمون عليك كقوله تعالى : ﴿ إلاَّ قِيلاً سَلاماً سَلاماً ﴾[٢] والسلام : اسم للسلامة من المكروه أو يطلق على التحية ، واللام فى قوله " لك " للاختصاص والكلام إجمال للتنويه بهم وعلو مرتبتهم وخلاصهم من المكدرات لتذهب نفس السامع كل مذهب ، وقوله تعالى:﴿ وأَمَّا إن كَانَ مِنَ المُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴾ عطف على قوله : ﴿ فَأَمَّا إن كَانَ مِنَ المُقَرَّبِينَ ﴾ تكميلاً للتفصيل ، وتتميماً للبيان والمقصود بهؤلاء هم أصحاب الشمال فى القسم السابق إلى أزواج ثلاثة " وقدم هنا وصف التكذيب على وصف الضلال عكس ما تقدم فى قوله : ﴿ ثُمَّ إنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ المُكَذِّبُونَ ﴾[٣] لمراعاة سبب ما نالهم من عذاب ، وهو التكذيب ؛ لأن الكلام هنا على العذاب قد حان حينه وفات وقت الحذر منه فَيُبيّن سبب عذابهم وذكروا بالذى أوقعهم فى سببه ليحصل لهم ألم التندم"[٤] وجزاؤهم : نزل من حميم أى نزل كائن من حميم يشرب بعد أكل الزقوم كما فصل فيما قبل ، والنزل : ما يقدم للضيف

---

(١) ينظر : تفسير أبو السعود ٨ / ٢٠١ .

(٢) ينظر : الكشاف ٤ / ٤٦٩ ، وتفسير أبو السعود ٨ / ٢٠٢ ، وروح المعانى ٢٧ / ١٦١ ، وسورة الواقعة من الآية رقم ٢٦ .

(٣) سورة الواقعة : من الآية رقم ٥١ .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير ١٤ / ٤٤٩ ، وروح المعانى ٢٧ / ١٦١ ، وتفسير أبو السعود ٨ / ٢٠٢ ، ومفاتيح الغيب ٢٩ / ١٥٢ .

من القرى أو ما يهيأ للنزيل "[١] ، والحميم : الماء الحار[٢] الذى بلغ أقصى درجات الحرارة وعبر بالمكان الذى ينزل فيه بالنزل على سبيل التهكم إذ النزل فى الأصل يطلق على ما يقدم للضيف على سبيل التكريم ، فإطلاقه هنا تهكم كما تقدم قريباً فى هذه السورة ﴿ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ ليس هذا فقط بل وتصلية جحيم " إى إدخال فى النار ، وقيل إقامة فيها ومقاساة لألوان عذابها ، وقبل ذلك ما يجده فى القبر من سموم النار ودخانها "[٣] والتصلية مصدر صلَّاه المشدد إذا أحرقه وشواه يقال : صَلَى اللحم تصلية إذا شواه وهو هنا من الكلام الموجه إبهامه أنه يصلى له الشواء فى نزله على طريقة التهكم أى يحرق بها ، والجحيم يطلق على النار المؤجَّجة ، ويطلق علماً على جهنم داراً لعذاب الآخرة ، وبعد هذا التقرير لحقيقة الموت وأنه واقع لا محالة وأن منازل الناس فى الآخرة لا تتعدى ما وصف القرآن الكريم بعد هذا ربما ظنت نفس مريضة أن هذا لا يعدو التهديد والترهيب ، ولأجل هذا أكد الكلام التالى لهذه الحقائق فقال : إن هذا أى جميع ما اشتملت عليه السورة من المعانى المثبتة ، والإشارة إلى " ذلك " بتأويل المذكور من تحقيق حق وإبطال باطل ، ولما كان ما أشار إليه من الظهور فى حدٍّ لا يساويه فيه غيره زاد فى التوكيد على وجه التخصيص فقال : ﴿ لَهُوَ حَقُّ اليَقِينِ ﴾ أى لكونه لما عليه من الأدلة القطعية المشاهدة كأنه مشاهد مباشر : والحق الثابت واليقين المعلوم جزماً الذى لا يقبل التشكيك " وإضافة حق إلى اليقين من إضافة الصفة إلى الموصوف أى لهو اليقين الحق ، وذلك أى الشئ إذا كان كاملاً فى نوعه وصف بأنه حق ذلك الجنس "[٤] وهذه الجملة تذييل لجميع ما اشتملت عليه السورة من المعانى وقد اشتمل هذا التذييل على أربعة مؤكدات ، وهى إن ولام

---

(١) ينظر فى ذلك : أساس البلاغة ٢ / ٤٣٦ ، ولسان العرب ١١ / ٦٥٦ ، والمحيط فى اللغة ٩ / ٥٤ ، ومقاييس اللغة ٥ / ٣٣٤ – ط اتحاد الكتاب العرب .

(٢) ينظر فى ذلك : لسان العرب ١٢ / ١٥٠ ، وتاج العروس ٣٢ / ١٢ .

(٣) ينظر : تفسير أبو السعود ١٨ / ٢٠٢ .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير ١٤ / ٤٥٠ .

الابتداء وضمير الفصل وإضافة شبه المترادفين ، ولما تحقق له هذا اليقين سبَّبَ عنه أمره بالتنزيه له سبحانه عما وصفوه به مما يلزم منه وصفه بالعجز قال فَسَبِّحْ " أى أوقع التنزيه كله عن كل شائبة نقص بالاعتقاد والقول والفعل والصلاة وغيرها بأن تصفه بكل ما وصف به نفسه من الأسماء الحسنى ، وتنزه عن كل ما نزه عنه نفسه المقدس ، ولقصره الفعل لإفادة العموم أثبت الجار بقوله : باسم ربك أى المحسن إليك بما خصك به مما لم يعطه أحداً غيرك عما وصفه به الكفرة من التكذيب بالواقعة "[1] وإذا كان هذا لاسمه تعالى فكيف بماله وهو العظيم الذى ملأت عظمته جميع الأقطار والأكوان وزادت على ذلك بما لا يعلمه حق العلم سواه قال الأصبهانى قال قتادة " فى هذه الآية إن الله عز وجل ليس تاركاً أحداً من الناس حتى يوقفه على اليقين من هذا القرآن ، فأما المؤمن فأيقن فى الدنيا فنفعه ذلك ، وأما المنافق فأيقن يوم القيامة حيث لا ينفعه "[2] .

هذا ... وقد انطبق آخر السورة على أولها فى الإخبار بالبعث وتصنيف الخلائق فيه إلى الأصناف المذكورة فى أولها أى انطباق ، وزاد هذا الآخر بأن اعتنق بدليله أى اعتناق ... والله أعلى وأعلم .

---

(١) ينظر : نظم الدرر ٧ / ٤٣١ .

(٢) ينظر : جامع البيان للطبرى ٢٣ / ١٦٤ ، والكشف والبيان ٩ / ٢٢٥ ، ونظم الدرر ٧ / ٤٣١ ، وتفسير القرطبى ١٧ / ٢٣٤ ، والدر المنثور للسيوطى ص ٤٠١٨ – ط دار الفكر – بيروت ١٩٩٢ م .

الخَاتِمَة

الحمد لله رب العالمين الذى بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير من ختمت به الرسالات وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً ...

وبعد ،،

فقد تم بحمد الله تعالى الانتهاء من هذا البحث وأسأل الله العظيم أن يجعله عملاً متقبلاً وأن يتجاوز عما بدر فيه من خطأ أو سهو أو تقصير أو نسيان إنه بكل جميل كفيل وهو نعم المولى ونعم النصير ، هذا ... وقد كنت أخذت على عاتقى أن أسير فى هذا البحث ملتمساً لخطى العلماء الأوائل فى كل ما قرروه واتفقت كلمتهم عليه وذلك حول " أما " وألا أنزع مترعاً مخالفاً إلا إذا تيقنت إن الصواب فيه ، وكنت قد استخلصت من هذه الدراسة عدة أمور هى كما يلى :

١ – أن هذا الحرف الذى جعلته مدار هذا البحث حرف بسيط فيه معنى الشرط ومعنى هذا أنه لا يفيد الشرط صراحة كما تفيده أى أداة من أدوات الشرط المجمع عليها بل يفيده بالحمل مع معنى مهما يكن من شئ ولهذا ألزموا جوابه الفاء إلا لضرورة – كما بينت آنفاً – .

٢ – هذا الحرف يفيد التوكيد وإن لم يذكر كثير من اللغويين والنحاة ذلك ولعل ذلك يرجع إلى أنهم لم يتعرضوا لدلالته فى كثير من الشواهد والأمثلة وإنما أوردوه فى مقام الشرط فقط ولهذا لم يقفوا على دلالته التوكيد ولم يقولوا به ، والذى أفاض فى هذه الناحية هو العلامة جار الله الزمخشرى – فيما أعلم – .

٣ – دلالة هذا الحرف على التفصيل دلالة أغلبية ومعنى هذا لا يفيد التفصيل فى كل أحواله بل فى أغلبها فقط ولهذا فإننى كنت أرى أمثلة وشواهد تصدرها "أما " ولما لم يكن للتفصيل منها نصيب كنت أتركها وشأنها ، أو كان فيها تفصيل إلا أنه ضئيل وخافت لا تكتنفه أسرار ولا يهدف إلى أغراض بلاغية تذكر ولهذا اتجهت بالكلية إلى الأمثلة والشواهد التى كان للتفصيل بأما فيها أكثر

الخط وأوفر النصيب من حيث الصياغة اللغوية ومن حيث الدلالات البلاغية والأسرار والنكات واللطائف والإشارات والتى اتكأ عليها السياق فى إبـــراز المعانى وإيضاحها وإيصالها بالطريقة المعبرة المؤثرة التى تشحذ الهمم وتنبه الذهن وتؤثر فى المتلقى وتضمن انتباهه وتوقظ مشاعره وتأخذ بلبـــه نحـــو الغـــرض المنصوب له الكلام .

٤ – كذلك كان لأما التفصيلية كثير من المقاصد البلاغية لما تدل عليه مـــن توضـــيح المبهم وتفصيل المجمل كالتقرير مثلاً والتوكيد وإبراز المعنى فى سورتين أحيانـــاً وتمكين المعنى فى النفس فضل تمكن وما إلى ذلك من الأهداف والمقاصد .

٥ – لما كان مناط الدراسة هو القرآن الكريم كان طبعياً ان أستقى من آراء المفسرين وأن أعتمد على آرائهم اعتماداً واعياً لا يأخذ كل ما يقف عليه بل ينـــاقش ويحلل ويقبل ويرفض فكل أحد مأخوذ من قوله ومتروك إلا مـــن عصـــم الله تعالى من أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام ، فكنت أبحث عن الرأى الذى يجلى المعنى المقصود ويبرز من خلاله السر البلاغى أو يشير فى مجمله إلى روعة القرآن وإلى سر إعجازه .

٦ – لم يتعرض البلاغيون لأما من حيث دلالتها على التفصيل فى بحث مستقل أو حتى بإشارة خفية – فيما أعلم – .

٧ – لم يتعرض اللغويون والنحاة لهذه الدلالة ولم يفردوا لها باباً مســـتقلاً إلا مـــا ورد عرضاً أثناء حديثهم عنها من حيث المعنى اللغوى فقط .

٨ – أما المفسرون فقد تناول كثير منهم الجملة التى تصدرها أما وأشاروا إلى مـــا فى الجملة من تفصيل سبقه إجمال من غير تعرض صريح لدلالة " أما " وما تركته من أثر فى بلاغة الكلام بل ربما أشاروا إلى أن هذه الجملة شروع فى تفصـــيل للمجمل السابق وهذا وإن كان مجرد إشارة إلا أنه من بـــاب الإنصـــاف – يكفى لمن تأملوا ، ولا ننسى أنه ربما قامت فصول وأبواب للعلم كانت قـــد

اعتمدت فيما قامت عليه على إشارات لأهل العلم الأوائل ، والأمثلة فى هذا كثيرة .

٩ – كان للتفصيل بأما دور فى إبراز المعانى والتحليق فى أجواء كثير من السياقات التى وردت فيها فمن تعرض للتفصيل لضرب الأمثال فى القرآن الكريم وتوضيحها وتفصيل مجملها تنويهاً بدلائل القدرة الإلهية ، ومن وقوف على مشاهد القيامة وما فيها من تفريق للناس إلى شقى وسعيد وتبيين مآل كل من الفريقين ومن مشاهدة لوجوه الناس فى عرصات القيامة وما تلونت به من بياض أو سواد جزاء ما قدموا لأنفسهم وكذلك من انعدام التسوية بين المؤمن الذى آثر رضى ربه على هواه وراحته فقام ليله لم ينم إلا قليلاً ، وبين الفاسق الذى خرج عن دائرة الطاعة إلى دائرة العصيان كذلك لم يترك التفصيل بأما التعرض لحال الإنسان حال حياته وحال وفاته فقد تعرضت له فى آخر لحظة من لحظات حياته الدنيا وعرضت لمشهد احتضاره ثم عرجت بالتفصيل على منازل الموتى فى الدار الآخرة وقد احتشد السياق و " أما " جوهرته لتعظ وتوجه وتحذر وتنذر من خلال ترغيب الناس فى الإيمان وترهيبهم من الكفران وساق البيان القرآنى العبرة والعظة فى مصارع الغابرين وأحوال الأمم المهلكين كل ذلك والبيان القرآنى يستهدف النفس الإنسانية ويجعلها محط اهتمامه ورعايته كل ذلك حتى يتم البلاغ ويحصل الإعذار بالإنذار وتقوم حجة الله على الخلق أجمعين .

والحمد لله على نعمائه والشكر له على جميل قضائه اللهم اجعل هذا البحث فى ميزان حسناتنا واغفر لنا به زلاتنا إنك نعم المولى ونعم المصير ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

ثبت المصادر والمراجع

- الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى – تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم – ط الهيئة المصرية العامة ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م – و ط دار الفكر العربى – بدون .
- أدب الكاتب لابن قتيبة – تحقيق / محمد محيى الدين – ط المكتبة التجارية مصر – ط رابعة ١٩٦٣ م .
- الأزهية فى علم الحروف للهروى – تحقيق / عبد المعين الملوحى – ط ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م .
- أساس البلاغة للزمخشرى – تقديم / محمود فهمى حجازى – ط الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٣ م .
- أسباب النزول للواحدى .
- أسرار العربية لأبى البركات الأنبارى – تحقيق د/ فخر صالح قدارة – ط دار الجيل بيروت – ط أولى ١٩٩٥ م .
- إشارات الإعجاز فى مظان الإيجاز لبديع الزمان سعيد النورسى – تحقيق / إحسان قاسم الصالحى .
- أضواء البيان للشيخ / محمد الأمين الشنقيطى – ط دار الفكر – بيروت – لبنان – ط ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م .
- الإطناب أنواعه وقيمته البلاغية – د/ محمود شاكر القطان – ط مكتبة دار التراث – المدينة المنورة – ط أولى ١٩٨٦ م .
- الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى – تحقيق د/ سمير جابر – ط دار الفكر – بيروت – ط ثانية .
- الأمثال فى القرآن الكريم لابن القيم – تحقيق / أبو حذيفة إبراهيم محمد – ط مكتبة الصحابة – طنطا – ط أولى ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .
- الأمثال من الكتاب والسنة للحكيم الترمذى – تحقيق د/ السيد الحميلى – ط ابن زيدون – بيروت – ط أولى ١٩٨٥ م .

- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام - ط دار الجيل - بيروت - ط خامسة ١٩٧٩ م .
- الإيضاح فى علوم البلاغة للقزوينى - ضمن الشروح - ط دار الكتب العلمية - بيروت - بدون ، ط دار إحياء العلوم - بيروت - ط رابعة ١٩٩٨ م .
- البحر الرائق شرح كنز الدقائق لزين الدين بن نجيم الحنفى - ط دار المعرفة - بيروت .
- البرهان فى علوم القرآن للزركشى - تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم - ط دار المعرفة - بيروت ١٣٩١ هـ .
- بغية الإيضاح لعبد المتعال الصعيدى - ط مكتبة الآداب - ط السابعة عشرة ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥ م .
- البلاغة العالية لعبد المتعال الصعيدى - تقديم د/ عبد القادر حسين - ط مكتبة الآداب - ط ثانية ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م .
- البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها - د/ عبد الرحمن الميدانى - ط دار القلم دمشق - الدار الشامية - بيروت - ط أولى ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .
- بلاغة الكلمة فى التعبير القرآنى د/ فاضل السامرائى - ط دار عمار - عمان - الأردن - ط ثانية ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م .
- البيان والتبيين للجاحظ - تحقيق / فوزى عطوى - ط دار صعب - بيروت - ط أولى ١٩٦٨ .
- تاج العروس للزبيدى - ط دار الهداية - بدون .
- التبيان فى إعراب القرآن للعكبرى - تحقيق / على البجاوى - ط عيس البابى الحلبى .
- التحرير والتنوير لابن عاشور - ط مؤسسة التاريخ العربى - بيروت - لبنان - ط أولى ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م .

– تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى لمحمد بن عبد الرحمن المبـــاركفورى – ط دار الكتب العلمية – بيروت .
– الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى – تحقيق / إبراهيم شمـــس الـــدين – ط دار الكتب العلمية – بيروت – ط أولى ١٤١٧ هـــ .
– التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى الكلبى .
– التعريفات للجرجانى تحقيق إبراهيم الإبيارى – ط دار الفكر العربى – بيروت – ط أولى ١٤٠٥ هـــ .
– تفسير أبو السعود – دار إحياء التراث العربى – بيروت .
– تفسير البحر المحيط لأبى حيان – تحقيق / عادل عبد الموجود وعلى معـــوض – ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط أولى ١٤٢٢ هـــ / ٢٠٠١ م .
– تفسير الخازن – ط دار الفكر – بيروت – لبنان – ط ١٣٩٩ هـــ / ١٩٧٩ م .
– تفسير السراج المنير للخطيب الشربينى – ط دار الكتب العلمية – بيروت .
– تفسير القرآن الكريم العظيم لابن كثير – تحقيق / سامى بن محمد سلامة – ط دار طيبة للنشر – ط ثانية ١٤٢٠ هـــ / ١٩٩٩ م .
– تفسير القرطبى .
– تفسير القشيرى .
– تفسير النسفى – ط دار الكتاب العربى – بيروت – بدون .
– تهذيب اللغة للأزهرى – تحقيق / محمد عوض مرعـــب – ط دار إحيـــاء التـــراث العربى – ط أولى ٢٠٠١ م .
– توحيد الربوبية لابن تيمية .
– توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك للمرادى تحقيق د/ عبد الـــرحمن على سليمان – ط دار الفكر العربى – ط أولى ١٤٢٨ هـــ / ٢٠٠٨ م .
– التوقيف على مهمات التعاريف للمناوى – تحقيق / محمد رضوان الدايـــة – ط دار الفكر المعاصر ، ودار الفكر – بيروت – دمشق – ط أولى ١٤١٠ هـــ .

– جامع البيان للطبرى – تحقيق / أحمد محمد شاكر – ط مؤسسة الرسالة – ط ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م .
– الجنى الدانى فى حروف المعانى للمرادى .
– جواهر البلاغة للهاشمى – ط مكتبة الآداب – القاهرة ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٠م .
– جواهر القرآن لأبى حامد الغزالى – تحقيق / محمد رشيد رضا – ط دار إحياء العلوم – بيروت – ط أولى ١٩٨٥ م .
– حاشية الدسوقى – ضمن الشروح – ط دار الكتب العلمية – بيروت .
– حاشية الشهاب الخفاجى – ط دار إحياء التراث العربى – بيروت – لبنان .
– حاشية الصاوى على الجلالين – ط دار إحياء التراث العربى – بيروت – لبنان .
– حاشية الصبان – ط دار الكتب العربية – بيروت – لبنان – ط أولى ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .
– حجة القراءات لعبد الرحمن أبو زرعة – تحقيق / سعيد الأفغانى – ط مؤسسة الرسالة – بيروت – ط ثانية ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .
– الحماسة البصرية لأبى الحسن البصرى .
– الخصائص لابن جنى – تحقيق د/ محمد على النجار – ط الهيئة المصرية العامة للكتاب – ط رابعة ١٩٩٩ م .
– خصائص التراكيب – د/ محمد أبو موسى – ط مكتبة وهبة – ط خامسة ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م .
– الدر المنثور للسيوطى – ط دار الفكر – بيروت ١٩٩٢م .
– ديوان حاتم الطائى – ط بيروت .
– ديوان عمر بن أبى ربيعة .
– ديوان النابغة الذبيانى – ط بيروت .
– رصف المبانى فى شرح حروف المعانى للمالقى – تحقيق / أحمد محمد الخراط – مطبوعات مجمع اللغة العربية – دمشق .

– روح المعانى للآلوسى – ط دار إحياء التراث العربى – بيروت .
– زاد المسير لابن الجوزى – ط المكتب الإسلامى – بيروت ط ثالثة ١٤٠٤ هـ .
– زهر الآداب وثمر الألباب للحصرى القيروانى – تحقيق / يوسف على طويل – ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط أولى ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .
– سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب – أبو الفوز أمين البغدادى – ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط أولى ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م .
– سر صناعة الإعراب لابن جنى – تحقيق د/ حسن هنداوى – ط دار القلم – دمشق – ط أولى ١٩٨٥ م .
– سنن الترمذى تحقيق / أحمد محمد شاكر – ط دار إحياء التراث العربى – بيروت .
– السنن الكبرى للبيهقى – تحقيق عبد القادر عطا – ط مكتبة دار الباز – مكة المكرمة ١٤١٤هـ / ١٩٩٤ م .
– شرح ابن عقيل – ط المكتبة التجارية الكبرى – القاهرة – ط الرابعة عشرة ١٩٦٥ م .
– شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائى – تحقيق د/ أحمد سعد حمدان – ط طيبة – الرياض ١٤٠٢ هـ .
– شرح السنة للبغوى – تحقيق شعيب الأرنؤوط ، د/ محمد زهير الشاويش – ط المكتب الإسلامى – دمشق ، بيروت ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٣ م .
– شرح عقود الجمان للسيوطى – ط الحلبى – مصر – ط ثالثة ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م .
– شرح العقيدة الطحاوية للشيخ / صالح بن عبد العزيز آل الشيخ .
– شرح كافية ابن الحاجب للرضى .
– الشعر والشعراء لابن قتيبة .
– شروح التلخيص – ط دار الكتب العلمية – بيروت .

– الصحاح للجوهرى – تحقيق / محمد زكريا يوسف – ط دار العلم للملايين – بيروت – ط رابعة – يناير ١٩٩٠ م .
– صحيح البخارى – تحقيق / محمد زهير بن ناصر الناصر – ط دار طوق النجاة – ط أولى ١٤٢٢ هـ .
– صحيح مسلم – تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقى – ط دار إحياء التراث العربى – بيروت ، ط دار الجبل بيروت ودار الآفاق الجديدة – بيروت .
– الصناعتين للعسكرى – تحقيق / على البجاوى ، د/ محمد أبو الفضل إبراهيم – ط دار الفكر العربى – ط ثالثة – بدون .
– طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكى – تحقيق / محمود الطناحى ، وعبد الفتاح الحلو – ط هجر للطباعة والنشر – ط ثانية ١٤١٢ هـ .
– الطبقات الكبرى لابن سعد – تحقيق / إحسان عباس – ط دار صادر – بيروت – ط أولى ١٩٦٨ م .
– الطراز للعلوى – ط دار الكتب العلمية ١٤٠٠هـ / ١٩٩٨ م ، و ط مكتبة المعارف – الرياض – بدون .
– عقود الجمان للسيوطى – ط الحلبى – مصر – ط ثانية ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٥ م .
– علم المعانى – د/ محمود توفيق سعد – ط دار الكتب الجامعية – المنوفية – مصر ١٤٢٣ هـ / ١٤٢٤ هـ .
– غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى – تحقيق زكريا عميران – ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط أولى ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .
– فتح البارى لابن حجر العسقلانى – تحقيق / عبد العزيز بن باز ، ومحب الدين الخطيب – ط دار الفكر .
– فتح القدير للشوكانى .
– الفروق اللغوية للعسكرى .

– فيض القدير شرح الجامع الصغير لعبد الرؤوف المناوى – ط المكتبة التجارية الكبرى – مصر – ط أولى ١٣٥٦ هـ .
– القاموس المحيط للفيروز آبادى .
– الكامل فى التاريخ – عز الدين ابن الأثير – تحقيق / أبى الفداء القاضى – ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – بدون .
– الكامل فى اللغة والأدب للمبرد – تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم – ط دار الفكر العربى – القاهرة – ط ثالثة ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م .
– كتاب العين للخليل الفراهيدى – تحقيق / مهدى المخزومى ، وإبراهيم السامرائى – ط دار ومكتبة الهلال – بدون .
– كتاب الكليات لأبى البقاء الكفومى – تحقيق / عدنان درويش ، ومحمد المصرى – ط مؤسسة الرسالة – بيروت ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م .
– الكشاف للزمخشرى – تحقيق / عبد الرازق المهدى – ط دار إحياء التراث العربى – بيروت .
– الكشف والبيان للثعالبى – تحقيق / أبى محمد بن عاشور – ط دار إحياء التراث العربى – بيروت – لبنان – ط أولى ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م .
– اللآلى فى شرح أمالى القالى لعبد الله بن عبد العزيز البكرى – تحقيق / عبد العزيز الميمنى – ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط أولى ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م .
– اللباب فى علوم الكتاب لابن عادل الحنبلى – تحقيق / عادل عبد الموجود ، وعلى محمد معوض – ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط أولى ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م .
– لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى – ط دار إحياء العلوم – بيروت .
– لسان العرب لابن منظور – ط دار صادر – بيروت – ط أولى – بدون .

– المثل السائر لابن الأثير – تحقيق / محمد محيى الدين – ط المكتبة العصرية – بيروت ١٩٩٥م.
– مجاز القرآن لأبى عبيدة .
– مجمع الأمثال للميدانى – تحقيق / محمد محى الدين – ط دار المعرفة – بيروت – بدون .
– مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمى – ط دار الفكر – بيروت ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .
– المحرر الوجيز لابن عطية – تحقيق / عبد السلام عبد الشافى – ط دار الكتب العلمية – لبنان – ط أولى ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .
– المحيط فى اللغة للصاحب بن عباد – تحقيق الشيخ / محمد حسن آل ياسين – ط عالم الكتب – بيروت – لبنان – ط أولى ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م .
– مختصر السعد التفتازانى ضمن الشروح – ط دار الكتب العلمية – بدون .
– المخصص لابن سيده – تحقيق / خليل إبراهيم جفال – ط دار إحياء التراث العربى – بيروت – ط أولى ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .
– مسائل البلاغة فى كتاب الخصائص – د/ عبد المنعم سيد عبد السلام – رسالة ماجستير – مخطوط فى كلية اللغة العربية بالقاهرة برقم ٧١٩ .
– المستدرك على الصحيحين للحاكم – تحقيق / مصطفى عبد القادر عطا – ط دار الكتب العلمية – بيروت – ط أولى ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م .
– مسند أبى يعلى – تحقيق / حسين سليم أسد – ط دار المأمون للتراث – دمشق – ط أولى ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .
– مسند أبى يعلى – تحقيق / شعيب الأرناؤوط وآخرون – ط مؤسسة الرسالة – ط ثانية ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م .
– مشارق الأنوار على صحاح الآثار للقاضى عياض – ط المكتبة العتيقة ، و دار التراث .

– مشكاة الأنوار ومصفاة الأسرار لأبى حامد الغزالى – تحقيق / محمد رشيد رضا – ط دار إحياء العلوم – بيروت – ط أولى ١٩٨٥ م .
– مصباح الظلام للشيخ عبد اللطيف آل الشيخ – تحقيق الشيخ / عبد العزيز بن عبد الله آل أحمد – ط وزارة الشئون الإسلامية – ط أولى ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م .
– المصباح فى المعانى والبيان والبديع لبدر الدين ابن مالك – تحقيق د/ حسنى عبد الجليل يوسف – ط مكتبة الآداب بالجماميز – بدون .
– المصباح المنير للفيومى – تحقيق يوسف الشيخ محمد – ط المكتبة العصرية .
– المصنف فى الأحاديث والآثار لابن أبى شيبة – تحقيق / كمال يوسف الحوت – ط مكتبة الرشد الرياض – ط أولى ١٤٠٩ هـ .
– معالم التنزيل للبغوى – تحقيق / محمد عبد الله نمر ، و عثمان جمعة ضميرية و سليمان مسلم الحرش – ط دار طيبة – ط رابعة ١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م .
– معانى القرآن للفراء .
– معانى القرآن للنحاس – تحقيق / محمد على الصابونى – ط أولى ١٤١٠ هـ / ١٩٨٨ م .
– المعجم الأوسط للطبرانى – تحقيق / طارق بن عوض الله ، وعبد المحسن الحسينى – ط دار الحرمين – القاهرة ١٤١٥ هـ .
– معجم البلدان للحموى – تحقيق د/ فريد الجندى – ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط أولى ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م .
– المعجم الصوفى .
– معجم قبائل العرب القديمة والحديثة لعمر رضا كحالة – ط مؤسسة الرسالة – بيروت – ط خامسة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .
– المعجم الكبير للطبرانى – تحقيق حمدى عبد المجيد السلفى – ط مكتبة العلوم والحكم – الموصل – ط ثالثة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م .

– معجم مقاليد العلوم فى الحدود والرسوم للسيوطى – تحقيق / محمد إبراهيم عبادة – ط مكتبة الآداب – القاهرة – ط أولى ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٤ م .
– معجم مقاييس اللغة لابن فارس – تحقيق / عبد السلام هارون – ط دار الفكر ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ، و ط اتحاد الكتاب العرب ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م .
– مغنى اللبيب لابن هشام الأنصارى ومعه حاشية الدسوقى – ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط أولى ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م .
– مفاتيح الغيب للرازى – ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط أولى ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠م.
– مفردات غريب القرآن للراغب الأصفهانى – ط دار القلم – دمشق – بدون .
– مقامات الحريرى – تحقيق / يوسف بقاعى – ط دار الكتب – بيروت – ط أولى ١٩٨١ م .
– من بلاغة النظم العربى دراسة تحليلية لمسائل علم المعانى – د / عبد العزيز عبد المعطى عرفة – ط عالم الكتب – بيروت – ط ثانية ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤ م .
– نزهة الأعين النواظر فى علم الوجوه والنظائر لأبى الفرج ابن الجوزى – تحقيق / محمد عبد الكريم كاظم الراضى – ط مؤسسة الرسالة – بيروت – لبنان – ط أولى ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .
– نظرات فى القرآن الكريم للشيخ / محمد الغزالى – ط دار النهضة – ط أولى .
– نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى – تحقيق / عبد الرازق المهدى – ط دار الكتب العلمية – بيروت .
– نهاية الأرب فى فنون الأدب للشهاب النويرى – تحقيق / مفيد قميحة وآخرون – ط دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط أولى ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٤م .
– الوجيز فى عقيدة السلف للشيخ / عبد الله الأثرى – تقديم / صالح آل الشيخ – ط وزارة الشئون الإسلامية – ط أولى ١٤٢٢ هـ .